بين الرمل والماء

البصرة.. صور وحكايات

٨١٣,٩٢
أ. ٣٨٤ أحمد، محمد سهيل
بين الرمل والماء.. البصـرة.. صور وحكايات
محمد سهيل احمد، البصـــرة: ديوان محافظة البصرة، ٢٠٢١.
١٣٤ص.، ٢٤سم
١. القصص العربية- العراق أ. العنوان.
م.و.
٤٠٠٧/ ٢٠٢١

المكتبـة الوطنيـة / الفهرسـة أثنـاء النشـر

رقـم الايـداع فـي دار الكتـب والوثـائـق ببغداد (٤٠٠٧) لسنـة ٢٠٢١

برعـايـة
محافظة البصرة

◇ جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

◇ All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2021

محمد سهيل احمد

بين الرمل والماء
البصرة.. صور وحكايات

2021

مُقَدِّمَة

بادئ ذي بدء لابد من القول بأنني لست مؤرخا بل باحث في الشأن التوثيقي للمنسي والمطموس والمزال والمشوه لتاريخ مدينتي التي قضيت عمري اهرب منها واليها حتى استقرت بي الحال لأن أجد نفسي طفلا في أحضانها. ومن هذا المنطلق يمكن ان أطلق على نفسي تسمية: باحث او موثق في الشأن البصري. وقد سبقني الى ذلك البحث مجموعة من مؤرخي وموثقي البصرة اعتمدت احيانا على كتبهم كمصادر أساسية او تنشيطية اذكر من بينهم المرحوم عبد القادر باش اعيان في كتابه (موسوعة تاريخ البصرة)، الاستاذ احسان وفيق السامرائي في كتابه (لوحات من البصرة ـ عبير التوابل والموانئ البعيدة)، والمرحوم رجب بركات في كتابه الموسوم (بلدية البصرة ١٨٦١ ـ ١٩٨١) وهي المصادر الرئيسة الثلاثة التي انطلقت منها دون ان يعني ذلك انها المصادرالوحيدة.

وسوف يلاحظ القارئ ان جلّ اعتمادي، عبر هذا الكتاب، ينصب بصورة أساسية على الصورة الفوتوغرافية التي التقط معظمها مصورون ومصورات زاروا بلاد الرافدين في فترات مختلفة مثل مدام ديولافوا، المس غرترود بيل، الفرنسيتان ايليني روجر فيوليسه وفرانسوا دي ميلدي اضافة الى مراسلين محليين تعاونوا مع

مؤسسات أرشفة كبرى مثل شـركة (جتي ايميجيز Getty Images) الأمريكية التي يضم أرشيفها ملايين الصور الملونة او بالأسود والأبيض من شتى أنحاء العالم.

ولئن كانت الصورة الفوتوغرافية في مقدمة مرجعياتي الرئيسة

إلا انها لم تكن الوحيدة، اذ اعتمدت على الشهادات الشخصية لأفراد عايشوا هذا المكان او تلك الشخصية من بينها انا كاتـب السـطور، اضـافة الى اللجـوء الى طـرق شتى مثل المعلومة التاريخية او الطوبوغرافية او الجغرافية. وكانت بعض المحـاولات مضنية ومخيبة للآمال لولا فضيلتا الإصـرار والفضول اللتـان أعانتـاني عـلى حسـم العديد من ثيمات الصور مكانا وزمانا. بيد ان المعضلة الأشد صعوبة تمثلت في تحديد أزمنة التقاط تلك الصور ما جعلني الجأ للمبدأ المعمول به في اجراءات الأرشفة التي تتبعها شـركات التوثيق الفوتوغرافي الا وهي استخدام مبدأ الــ (Circa) أي وضـع تاريخ تقريبي لزمن هذه الصورة او تلك فمفردة (سـركا) ان جـرى اسـتخدامها في شـرح الصورة تعني (تقريبا). مثـال (Circa ١٩٢٠) انـما تعنـي امـا عـام ١٩١٩ او ١٩٢١، على سبيل المثال.

لكنني أجد نفسـي ملزما بذكر ما انجزته في هذا المضـمار مـن مهـام تـتلخص في تدقيق جزيئات الصور ونسبتها الى مواقعها الحقيقيـة وتحديـد تـواريخ التقاطهـا، إنْ أمكن. ان واحدة من معضلات الحفر في آثار المدينة تتمثل في تحديد تـواريخ الصـور الفوتوغرافية والتي تعد الحلقة الأضعف في عمليات البحث والتنقيـب لأسـباب لا تخفى على المتابع.

المدينة كائن حي؛ امرأة تتفتح مثل وردة ثم ما تلبث ان تذوي. ان المدينة – قبل ان تلفظ أنفاسها الأخيرة – تلد مدينة أخرى تشبهها ولا تشبهها، وبالتالي نشهد أعـدادا لا متناهية من المدائن. ان بصـرة الأمس قد راحت.. وحلت محلها بصـرة أخرى هي امتداد متجدد لكيان شبه متلاش. ولعـل الصـورة الثانيـة أقـرب الى الملمـوس مـن الصورة الأولى بل أقرب الى قانون الحياة:

ولادة.. بناء ثم فناء ثم ولادة وهكذا دواليك !

لقد التصق مفهوم الحضور بالبناء فتلازما، في اغلب الأحيان، في حين التصق الغياب بالنسيان والهدم فأمسى كل منهما وجهان لعملة واحدة نتداولها شئنا او أبينا، اذ نسلك دربا واحدا يفضي بنا الى الفناء.

أنين البصرة الخافت، خفق السنين – وهو يثقل بالتياع ألف خراب وخراب– يستحيل الى حبل لا يفتأ يطوق أعناق أبنائها فلا فكاك. وبقدر ما يبدو الحضور جليا كشمس النهار فإن الغياب – وهذا هو ديدن الغياب– قد تلحظه العين المجردة. تبدو شفرة البلدوزر في أوضح أشكالها وهي تكشط وتقطع. هذا هو مظهر من مظاهر الحضور المادي غير ان هنالك أصنافا أخرى من الغياب لا يمكن للعينين ان تلحظها. فيستشعرها القلب وقد يغفل عنها كالموت والانقطاع والنسيان والاندثار والإلغاء والحجب وغيرها من مشاهد اختفاء تدريجي fade out خافت خفي وغير مدرك. ان مستويي التقويض يحدثان على نحو متزامن: ثمة تقويض مادي يحدث عن طريق الحذف او الحذف والإضافة. كما ان هنالك شكلا أخر من أشكال الحذف هو النسيان. وعلى هذا يمكن تصنيف هذه السطور على انها كتابة ضد الزمن وانتزاع لما تبقى من خصائص تميز هذه المدينة عن تلك؛ من فكوك النسيان، مرة عن طريق راوٍ طاعن في السن احتفظ بذاكرة غير قابلة للانطفاء، ومرة عبر عين كاميرة ما، بطاقة بريدية صورة فوتوغرافية، أو ما تتناوله أقلام المؤرخين من مسعى لتوثيق وترسيخ ما هو مهدد بالزوال متمثلا بتلك العلامات الفارقة التي كانت تمنح المدينة فرادتها وخصوصيتها قصوراً، وشناشيل، فنادق وحدائق، شوارع، مقاهٍ، نصب تذكارية، معابد وأضرحة، سير، حكايات فولكلورية وغيرها.

ان أشد أصناف الخراب إيلاما هو خراب الروح.. يبقى، مع ذلك بصيص من أمل في ان ثمة من يحاول استحضار تلك الروح في أمسها القريب البعيد الحافل بالبساطة والطيبة والنقاء.

ما يخيف هو ان تلك الوجوه دأبت على الانطفاء وجها تلو وجه.

نتفق جميعا على ان المدينة كائن حي له بعدان: البعد الأول يكمن في حضورها المادي المتجسد والبعد الثاني يكمن في حضورها الروحي. وتتلاحق الأسئلة منهمرة على وجوهنا الغافية فتوقظنا ولو الى حين. ونحن إذ نعي جيدا لعبة الزمن التي لا تنجو منها مدينة من مدن الدنيا، إنما نعي أيضا انه ما من مدينة من مدن الدنيا تعرضت لهذا القدر من الخراب كما البصرة. ترى هل نملك من الكفاءة وفسحة الوقت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من مدينة اسمها او كان اسمها البصرة لطالما ضرب بها المثل الشهير (بعد خراب البصرة)؟!

من المؤسف أننا أصبحنا بين حالتين:

الحنين للأمس والاستغراق في متع الحاضر الخادعة.

مع الزمن ومعاول الريح والبشر، تفقد المدينة سماتها التي اكتسبتها من طرقات وعمائر وشرفات وضفاف. حين تزال بناية هنا وتقتلع غابة نخيل هناك تبدأ المدينة بفقدان وجهها الذي ألفه ساكنوها لتمسي مكاناً غريباً تنكره العين قبل القلب فإذا بمن عاش فيها يتحول بدوره إلى كائن غريب.

هذه التبدلات هي سمة من سمات كل كائن حي أو غير حي، فالبشر يتبدلون.. أزياءً ووجوهاً مثلما يمسي الشباب كهولاً والكهول طاعنين في السن، وهكذا هي المدن!

الفصل الأول

مصورون محليون وأجانب

ترجع ندرة الصور الفوتوغرافية لمعالم المدن العراقية، وفي مقدمتها الحواضر الثلاث بغداد والموصل والبصرة الى تأخر دخول فن التصوير الفوتوغرافي الى البلاد، الا فيما ندر. وذلك راجع الى تأخر مظاهر النهضة الصناعية واعتمادها على طرائق بدائية في العيش. غير ان الاحتلال البريطاني - رغم سلبياته كاحتلال - قد ادخل معه عددا من الاجهزة المتقدمة علميا كالهاتف والتلغراف والتصوير الفوتوغرافي الذي حافظ لحقب عديدة على طرائقه البدائية في نقل المرئيات والوجوه عن طريق الاقتصار على التصوير الشمسي المحدود الإمكانات. ومع ذلك يمكن القول ان عددا قليلا من العراقيين استطاعوا، عن طريق الترحال في المقام الأول، ان يستوردوا آلات تصوير اكثر تقدما بمعايير ذلك العصر.

وحتى محلات التصوير لم تفتح أبوابها الا في فترة الثلاثينيات، وكانت جلّ انشطتها تعتمد على التصوير الشخصي الداخلي المخصص للأغراض الرسمية او المتعلق بالمناسبات الاجتماعية. لكن بعض المصورين المتجولين التقطوا عددا من الصور الخاصة بجهات المدينة مثل الكورنيش والمتنزهات مستخدمين كاميرات تعمل بالفلاش او بدون الفلاش.

لابد من ذكر اسهامة المصور المسيحي عبد الكريم تبوني البصري القادم من الموصل، في اغلب الظن، ويبدو ان اسفاره للهند وعلاقاته الواسعة ببعض شركات التصوير قد اتاحت له ان يترك لنا مجموعة من الصور ذات الطابع التوثيقي مثل الصور التي التقطتها كاميرته لمشاهد من نهر الخورة ومنطقة المناوي باشا نظرا لقرب سكنه من المنطقة، اضافة الى تعامله مع شركة حسو اخوان التي كان مقرها بغداد في الترويج لتلك الصور او استخدامها كبطاقات بريدية كان الجنود البريطانيون حريصين على ارسالها لذويهم. ويبدو ان تبوني قد وسع من دائرة نشاطه بدء من العشرينيات من القرن الماضي وتوج تعاونه مع شركة تك Tuck البريطانية. والواقع ان تسعين بالمائة من الصور المودعة في المتاحف البريطانية والامريكية لبلاد ما بين النهرين التقطت بأيدي مصورين ومصورات اجانب مثل البوم (المس بيل) الذي غطى بقاعا عديدة من الجنوب العراقي. ولكننا آثرنا التركيز على ثلاث مصورات شهيرات هن الفرنسية (ايلين او هيلين روجر فيوله) التي زارت العراق عام ١٩٦٤ والمصورة الفرنسية العالمية فروانسوا دي ميلدي التي شهدت وقائع حرب الخليج الثانية وانتفاضة آذار وما بعدهما من احداث عام ١٩٩١. اضافة الى المصورة الحربية الاميركية بولا برونشتاين:

لقاء الديجيتال بالمتحضر في متحف
المصورة الفرنسية روجر ـ فيوليه (١٩٠٢ـ١٩٨٥)

شهد عام ١٩٣٨ نقلة كبرىٰ في عالم التصوير الفوتوغرافي ففي فرنسا تمخض الاتفاق الثنائي الذي ابرمه الزوجان الفرنسيان ايليني روجر ـ فيوليه وجان ـ فكتور فيشر وهما المصوران المفعمان بالمشاعر الجياشة والمترحلان في مدن العالم، عن تأسيس (غاليري روجر ـ فيوليه العام للتوثيق الفوتوغرافي) والذي ما زال موقعه علىٰ نهر السين والذي يعد واحدا من أقدم الوكالات الفرنسية المعنية بالصور إثر شرائه من مالكه الاسبق تاجر الصور الفوتوغرافية لوران اوليفييه. وشملت الصفقة تخليه عن مجموعاته الشخصية من الصور ومقتنيات الفنون الجميلة. وبعد عملية الشراء قام الزوجان بإضفاء اللمسات الاسرية علىٰ المركز بعيد الحرب العالمي الثانية مما نجم عنه إثراء عملية الأرشفة بأعداد هائلة من الصور الفوتوغرافية وفي مختلف الموضوعات.

مارة حول العالم

عبر السنوات استطاع مؤسسو الوكالة توطيد صرحهم الفريد من نوعه في اوروبا مغطين ما يزيد عن القرن ونصف القرن من التاريخ الفرنسي والعالمي: أحداث عالمية، مهن صغيرة، فنون جميلة، علوم، أحداث سياسية، رحلات غريبة، شوارع باريسية، حياة الليل، صور شخصية لمشاهير القرنين وأخرىٰ خاطفة لمارة حول العالم.

وقبل رحيل الزوجين في ١٩٨٥ كانا قد أوصيا بإهداء مدينتهما باريس كل ما له صلة بشؤون المركز وكذلك مجموعات الصور التي بلغت مايقارب الاربعة ملايين

من السلبيات (نيجاتيف) ومليوني صورة مطبوعة. وفي عام ٢٠٠٥ قام الورثة بدمج الوكالة بالمجموعة الباريسية للتصوير الفوتوغرافي وهي من المجموعات المعنية بأرقمة وأرشفة الأحداث والأماكن والوجوه الباريسية والايقونات التي ترمز لعاصمة النور. ويعتمد ارشيف روجر ـ فيوليه على ما تزوده به بقية المراكز ومكتبات ارشفة العاصمة الفرنسية. كما يعتمد المركز ايضا على ما تقدمه عشرات المتاحف ومكتبات الأرشفة فثمة ١٥ متحفا من باريس قامت بتزويد المركز بما يزيد عن المليوني وثيقة ضوئية من بينها مجموعات متحف (الكارنفاليت) الضخمة وصور مكتبة باريس التاريخية ومتحف باريس للفنون الجميلة اضافة الى متاحف أكثر تخصصا مثل (متحف سرنوتشي) الآسيوي، ومتاحف معنية بالأزياء واخرى متخصصة بالفنون الغرافيكية؛ كما تزود المركز متاحف لأدباء ورموز فكرية من امثال بلزاك، هوغو، بودلير ومئات آخرين. ومؤخرا جرى إلحاق ما يعادل ٧٥٠٠٠ صورة لمدينة باريس بأرشيف المركز. أما عن المصادر العالمية فهناك تعاون مع مؤسسة (ألیناري) الايطالية و(اولشتاين بيد) من المانيا اما بريطانيا فتقوم مؤسسة (توبفوتوTopfoto) بضخ كميات كبيرة من الصور التراثية، وثمة تعاون بين المركز و مركز (جتي للصور) الامريكي حيث قام بتزويد المركز وما زال يقوم بتزويده بصور ذات قيمة فنية وتاريخية وتراثية اضافة الى التعاون مع إحدى المؤسسات النمساوية في هذا المضمار. ويعول المركز على جهود عدد من المصورين الميدانيين ممن يقومون باثراء المتحف بصورة وتقارير من شتى بقاع العالم عبر شبكة انترنيت متشعبة.

فيوليه في العراق

المبدع لا يكتفي بالكلمة ولا بالصورة ولا يؤمن بالالتصاق بطاولة الكتابة ولا بالعمل بين اربعة جدران. ومن هنا آثرت ايليني روجر فيوليه ان تترحل من بلد شرق اوسطي الى آخر كيما تتعرف على تاريخه السياسي والتراثي والفني عبر الصورة والتقرير الصحفي. زارت مصر في اوائل الستينات والتقت كما التقطت

صورا لجمال عبد الناصر وزعماء عرب آخرين. اما زياراتها للعراق فتمخضت عنها مئات الصور الفوتوغرافية بالأسود والأبيض مع الاستعانة بجهود مصورين ومصورات كن يخضن غمار التجربة نفسها. لقد شملت رحلات فيوليه الفوتوغرافية بغداد والموصل وكربلاء والبصرة ومدنا عراقية اخرىٰ كما أولت اهمية لتغطية اخبار التمرد الكردي والاطاحة بالزعيم عبد الكريم قاسم لتشمل جولاتها صورا شخصية للزعماء والقادة العراقيين دون ان يؤثر ذلك الاهتمام علىٰ نزعتها الشعبية لتصوير مشاهد مثلت الحياة الشعبية العراقية خير تمثيل. ومن بين ما قامت بتصويره شارع الوطني في بصرة اوائل الستينات ونهر العشار وايوان كسرىٰ والعديد من المراقد الدينية المبثوثة في ارض بلاد الرافدين وجوانب التقطت بزوايا فنية للحياة العراقية مثل باصات الخشب العملاقة والمقاهي الشعبية والأماكن السياحية في شمال العراق وغيرها.

المصورة الحربية الفرنسية الراحلة فرانسوا دي ميلدي (١٩٤٧ـ ٢٠٠٨)

يعد المراسل الحربي ذا أهمية قصوىٰ لاسيما إذا تزود بقلم موضوعي ودفتر ملاحظات وآلة تصوير عالية الجودة وقبل ذلك كله وعيا فكريا وفنيا رفيعين. وقد أدركت الدول المتحاربة الاهمية الاستخباراتية للمراسل الحربي فقامت بتجنيد من استطاعت تجنيده من ادباء وصحفيين، غير ان عددا لا يستهان به من المراسلين الحربيين جعل من مهنته واسطة للتعبير عن وجهات نظره في الحياة. نذكر في هذا المضمار الروائي الامريكي الشهير ارنست همنغواي وآخرين. والمراسلة الحربية الفرنسية فرانسوا دي ميلدي Francoise De Mulder واحدة من النماذج التي برزت في توثيق اشد صفحات النزاعات التهابا عبر آلة تصويرها وفي أكثر من جبهة من جبهات الصراع الأزلي بين البشر.

ولدت فرانسوا دي ميلدي في التاسع من حزيران ١٩٤٧ ابنة لمهندس الكترونيات كما اشتهرت باسم التدليل الثاني (فيفي) مثلما عرفت بجمالها الهادئ الذي اهّلها للعمل كعارضة أزياء غير انها سرعان ما انجذبت لعالم التصوير فكانت رحلتها الاولىٰ برفقة آلة التصوير الىٰ فيتنام والتي تمخضت عن مجموعة متميزة من الصور الفوتوغرافية استغرقت ثلاث سنوات احالتها الىٰ عاشقة لفن التصوير ومن ثم قامت بعدد من الرحلات الصحفية الىٰ كل من انغولا، لبنان، السلفادور، اثيوبيا، كمبوديا باكستان وكوبا. وقد خلصت عبر اطلاعها المباشر علىٰ واقع البلدان التي زارتها الىٰ حقيقة الزيف او سوء الفهم والأخطاء التي كانت السمة الأبرز للعديد من تقارير زملائها مراسلي الصحف الغربية وعرفت بصداقتها لعدد من القادة والرموز الثورية كان الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات في طليعتهم. بعد ان قامت بتغطية أجواء الحرب العراقية الايرانية، كانت من بين العدد القليل من المراسلين الأجانب

الذين زاروا بغداد وقاموا بتصويرها ابان هجوم الحلفاء في حرب الخليج الثانية كما غطت جوانب من الآثار المدمرة التي اعقبت انتهاء الحرب واندلاع انتفاضة عام ١٩٩١ في البصرة ومدن عراقية اخرىٰ. من بين الوكالات التي تعاملت معها وكالة (غاما) و(سيبا) ومجلة تايم ونيوزويك ووكالة (جتي للصور الفوتوغرافية والتصميم الغرافيكي والطباعة والنشر) والتي أسست عام ١٩٩٥ في سياتل بالولايات المتحدة علىٰ يد كل من مارك جتي وجوناثان كلاين. مكاتبها الرئيسة في واشنطن ولها فروع في كل من لندن ونيويورك ودبي وتورنتو وباريس حيث قامت بشراء حقوق عدد من الغاليريهات مثل غاليري هيلين روجيه فيوليه وزوجها والذي يضم عددا كبيرا من الصور لمدن عراقية من بينها البصرة. ولدىٰ مؤسسة جتي ارشيف رقمي وورقي يضم مايزيد عن ثمانين مليون صورة فوتوغرافية ملونة او بالأسود والأبيض. ولدىٰ الوكالة تعامل مع عدد كبير من المراسلين والمصورين من كلا الجنسين كان من بينهم المصورة الراحلة فرانسوا دي ميلدي. ومن بين اشهر الصور التي التقطتها وقادتها لنيل ارفع الجوائز العالمية اثنتان الاولىٰ لدبابة شمال فيتنامية وهي تكتسح البوابة الرئاسية في سايغون سنة ١٩٧٥ والثانية – وكانت بالأسود والابيض ويعود تاريخها لعام ١٩٧٦ – لامرأة فلسطينية تتضرع لأحد رجال الميليشيات في منطقة الكرنتينا ببيروت قبالة بيت محترق إبان مجزرة الكرنتينة الشهيرة سنة ١٩٧٦ .غير ان المؤلم في الامر هو ان فرانسوا نفسها ومنذ السنة نفسها أصيبت بالشلل كمحصلة لإصابتها بالسرطان لتفارق الحياة اثر نوبة قلبية في الثالث من ايلول ٢٠٠٨ تاركة وراءها إرثا فنيا هائلا في قيمته التقنية والإنسانية في آن معا.

لقطة لشارع الوطني بعدسة المصورة هيلين روجر فيوليه ١٩٦٤

المصورة الفرنسية فرانسوا دي ميلدي

امرأة من ريف شمال البصرة من صور دي ميلدي

بحثا عن الماء في اعقاب حرب الخليج الثانية بعدسة دي ميلدي

نسوة امام سجن البصرة المركزي لميلدي

الفصل الثاني

انهار وجسور

يقول سليمان فيضي في كتابه (البصرة العظمى): " في زمن هدايت باشا تم انشاء جسر العشار وذلك في عام ١٨٨٤ كما انشئت قشلة العشار العسكرية في زمن مخلص باشا عام ١٩٠١ للمحافظة على الأمن.

نهر العشار واحد من ثلاثة او اربعة انهار كانت بمثابة الشرايين الرئيسة للشبكة المائية التي تغطي مساحات واسعة من مركز المدينة عبر اسهاماتها في ري بساتين النخيل وما تنتجه من خضروات وأنواع من الفاكهة. كما كان وسيلة من وسائل المواصلات سواء كان عن طريق نقل السلع التجارية من والى سيف البصرة القديمة او وسيلة من وسائل النقل النهري لأهالي المدينة بواسطة الابلام والزوارق البخارية (الماطورات) في بدايات القرن العشرين.

عبر تاريخه عرف نهر العشار بصفاء مائه مثلما عرف بجسوره المقامة عليه بدءً بجسر المقام وليس انتهاء بمنطقة السيف - الحي التجاري والسكني - الاقدم. لكن جسر المغايز كان وما زال قنطرته الذهبية الذي يفضي بالأقدام المرهقة الى قلب سوق المغايز التجاري حيث المقاهي والمخازن والبسطات وحيت تحلق روائح البهارات التي غالبا ما كانت المراكب العملاقة تجيء بها من بلاد الهند والسند في مسفن (الداكير) قبل ان تطلق صفارات الرحيل الى موانئ الدنيا!

تزامنا مع ازدهار الحراك التجاري في اواخر العصور العثمانية، انتعشت الحياة

التجارية في منطقة العشار شمالي النهر. كانت البواخر الراسية تفرغ حمولاتها من موانئ الهند وشرقي آسيا والقرن الافريقي مثلما كانت اعداد من المسافرين الهنود يغادرونها الى خانات المدينة ابتغاء للرزق او لزيارة الاماكن المقدسة. وما ان اوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء حتى وجدت الدولة العثمانية نفسها امام اكثر من تحد تمثل بمقدم البرتغاليين تلاهم الهولنديون. غير ان القوة المنافسة الأكثر حماسا وتسابقا على النفوذين التجاري والسياسي تمثلت في بريطانيا الدولة البحرية التي كانت لها السيادة المطلقة على اعالي البحار منذ انتصارها الحاسم على اسبانيا. بريطانيا كانت تبحث بضراوة عن موطئ قدم في بلاد ما بين النهرين انطلاقا من البصرة ميناء الخليج المزدهر حينذاك. وقد نجحت بالفعل في التسلسل الى السوق العراقية عبر شركات مثل شركة (لنج Lynch) وغيرها وراحت بواخرها العملاقة تمخر عباب شط العرب ودجلة. وعلى الرغم من أن وجودها كان في البداية (دون مستوى الطموح)، الا ان احتلالها للبصرة عام ١٩١٤ كان بمثابة الفرصة الذهبية كي تهيمن على بلاد ما بين النهرين وعلى البصرة بالذات بحكم أهميتها التجارية واللوجستية وكونها همزة الوصل بين الهند شرقا وأوربا غربا.

لم يكن نهر العشار ناشطا في أوج الحكم العثماني فقد كان اعتماد اهل المدينة في التنقل على المواصلات النهرية من ابلام وزوارق ومهيلات. ولكن مع ارتفاع وتيرة التنافس الدولي على البصرة وازدهار حركة التجارة من وإلى ميناء البصرة أنشئ جسر خشبي على النهر ليستبدل ابان فترة الاحتلال البريطاني بجسر من الخشب أكثر متانة اطلقت عليه تسمية (جسر وايتلي Whiteley Bridge) نسبة الى المهندس البريطاني C.B Whiteley الذي كان يحمل رتبة عقيد من اسرة عرفت بإقامة الجسور في يوركشايِر بانكلترا.

مع نشوء الدولة العراقية وفي اواخر العشرينات أطلق على الجسر تسمية (جسر الأمير غازي) ولغاية تحوله الى جسر من الطابوق ايام الاربعينات من القرن

الماضي. ولكن تسمية (جسر الهنود) او جسر المغايز اكتسحت التسميتين الأوليين على الصعيد الشعبي وذلك بسبب التواجد الهندي الكثيف للهنود الذين قدموا للبصرة غزاة وتجارا اضافة الى العدد الكبيرمن المحلات(المغازات) التي اكتظ بها السوق. اما في السنوات الاخيرة فقد شيد الجسر من الحديد.

جسر وايتلي او الأميرغازي او جسر الهنود.. ثلاثة اسماء لواحد من اهم جسور البصرة حيوية، فقد كان يفضي بالعابرين من الجهة الجنوبية لنهر العشار الى الشمالية منه حيث السوق الذي بسوق المغايز او الصيادلة لكثرة مخازنه التجارية التي كانت تعرض شتى اصناف السلع، او سوق الهنود لارتباطه بالوجود الهندي العسكري والتجاري قبل وبعد الحرب العالمية الاولى.كان نهر العشار واحدا من ثلاثة او اربعة انهار، عدّت، بمثابة الشرايين الرئيسة للشبكة المائية التي تغطي مساحات واسعة من مركز المدينة عبر إسهاماتها في ري بساتين النخيل وما تنتجه من خضروات وانواع الفاكهة. كما كان وسيلة من وسائل المواصلات سواء كان عن طريق نقل السلع التجارية من والى سيف البصرة القديمة ام وسيلة من وسائل النقل النهري لأهالي المدينة في بدايات القرن العشرين.

قشلة العشار

في البدء شيد ذلك الجسر ليكون بمثابة همزة وصل بين القسم الجنوبي أي منطقة المناوي باشا حيث توجد بعض الابنية ذات الاهمية العسكرية قبل التجارية للدولة العثمانية وبين قشلة العشار وكانت مبنى حكومة الدولة العثمانية في ولاية البصرة في منطقة العشار ويوجد فيها مبنى ساعة القشلة، وتسمى السراي أي مقر الحكومة في البصرة وهي مقر والي البصرة العثماني، حيث ان مدينة البصرة دخلت في حكم الدولة العثمانية في عام ١٥٤٦م، وظلت حتى احتلتها القوات البريطانية في عام ١٩١٤م، أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي عهد الدولة العثمانية كانت قشلة العشار

تعتبر القاعدة البحرية الثانية بعد منطقة السويس في مصر التي استخدمت لمواجهة سفن المستعمرين في الخليج.

وكلمة القشلة هي كلمة من اللغة التركية تعني المكان الذي يمكث فيه الجنود بالشتاء، وهي قد تعني المشتى أي المكان الذي يقي الإنسان من تقلّبات الجوّ، ثم خصّصت لاقامة الجنود وقت السلم، أي ما معناه الثكنة العسكرية أو المعسكر كما يطلق عليه الآن.

القنطرة الذهبية

يتحدث الكاتب المؤرخ احسان وفيق السامرائي عن سوق الهنود في كتابه لوحات من البصرة (عبير التوابل والموانئ البعيدة) قائلا: " لقد اكدت لنا الاراء مجتمعة بأن سوق الهنود كان موجودا أواخر القرن التاسع عشر اذ شرعت السلطات العسكرية العثمانية ببناء جسر صغير يربط ضفتي نهر العشار الجنوبية والشمالية ويوصله بالضفة الاخرى وكانت الجبهة الشمالية مكتظة بالمسقفات وعلاوي الخشب فأصبحت تسمى شارع الساحل. وبعد ذلك التاريخ صمد سوق الهنود اكثر من سبعين عاما متحديا العقبات والمحن والغوغاء والحرب فأصبح القنطرة الذهبية الى موانئ العالم البعيدة محققا نبوءة الرحالة غورينو: البصرة سوق من اعظم الاسواق في هذه البحار "ص٤٥ – ٤٦، ثم يقول: " لقد صمم سوق الهنود وطريقه الموصّل الى قشلة سي بصورة مستقيمة حتى لا يتعارض مع الفروع والمنعطفات التي تمر عليه ويمكن مشاهدة ذلك بصورة مستقيمة لم تتعارض مع الفروع والمنعطفات التي تمر عليه.ويتواصل سوق الهنود باستقامته وصولا الى شارع قشلة سي او شارع ابي الاسود الدؤلي، عبر مراكز الصيدليات وعيادات الاطباء ومحلات الصاغة حتى نهر الخندق خارج امتداد سوق الهنود والذي تقع على مقربة منه محطة الكاريات (المترو) وهي عربات تجرها الخيول وتمشي على سكة حديد خاصة بنقل الركاب اثناء الحكم العثماني.

والمثير في سوق الهنود كثرة المتاجر والمحلات والخانات التي استطاعت ان تخلق وحدة جمالية ومعمارية حافظت على نمط مميز اثرت فيه الإضاءة على السوق بأجمعه لأنها تتوزع بنسق جميل من الطابق العلوي عند تسربها من الروازين والفتحات لتسمح للضوء والهواء بالمرور تحسبا من طقس البصرة رغم ان مؤرخي المرحلة العثمانية قد أكدوا بأن السوق كان مضاء بالفوانيس واللوكسات والمصابيح الكهربائية بعد الاحتلال البريطاني. " نعم لقد كان جسر الهنود او جسر المغايز بمثابة القنطرة الذهبية التي تقود المتبضع والزائر والمتجول الى أكثر من ركن ومتجر مميز. لقد كان ذلك الجسر حلقة الوصل الاولى بين الساحل الجنوبي وسوق المغايز او سوق الهنود الذي اتينا على ذكره. غير انه لم يكن الجسر الوحيد على نهر العشار فهناك جسر المقام الذي شيد في الثلاثينات من القرن الماضي والذي قصد بتشييده ان يكون مسلكا الى ارصفة الدوكيارد والقشلة العثمانية ذات الموقع العسكري الهام في ذلك الحين. اما الجسور الاخرى فقد شيدت في اوقات متأخرة قياسا بسوق الهنود مثل جسر المتصرفية وجسر الجزائر وجسر البصرة القديمة الذي يقع قبالة المحكمة القديمة وجسر الغربان الذي يعد همزة الوصل بين منطقة نظران وحي الباشا في البصرة القديمة.

وقد استبدل هذا الجسر في يومنا هذا بجسر مصنوع من مادة الحديد يصح ان يقال فيه ان الجسور تشبه قلوبنا كانت من خشب وأصبحت من حديد!

ثمان صور تعكس المراحل التي مرّ بها جسـر الهنود(وايتلي)
منذ بدايات القرن العشـرين ولغاية وقت قريب من يومنا هذا.

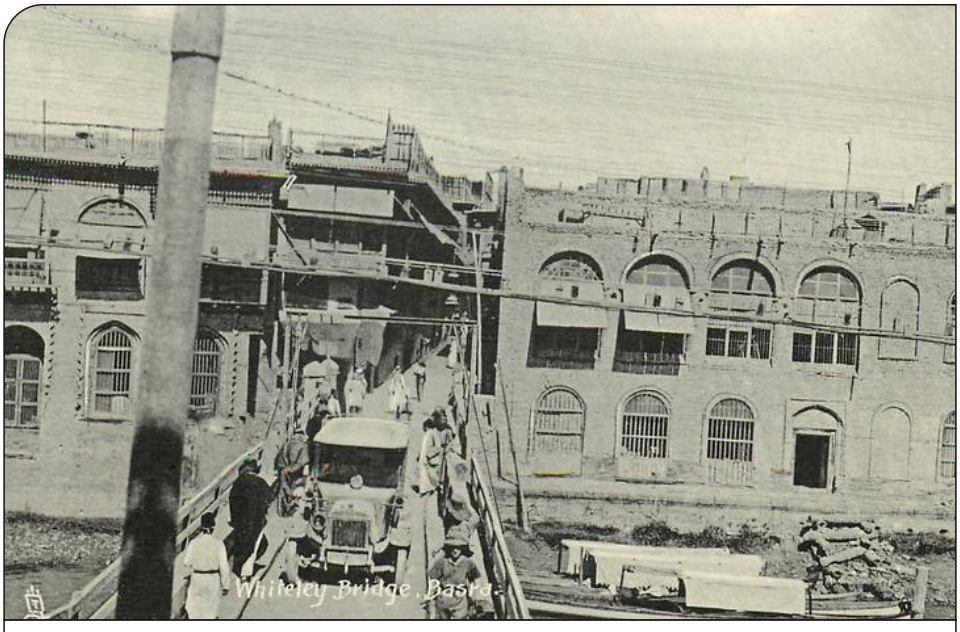

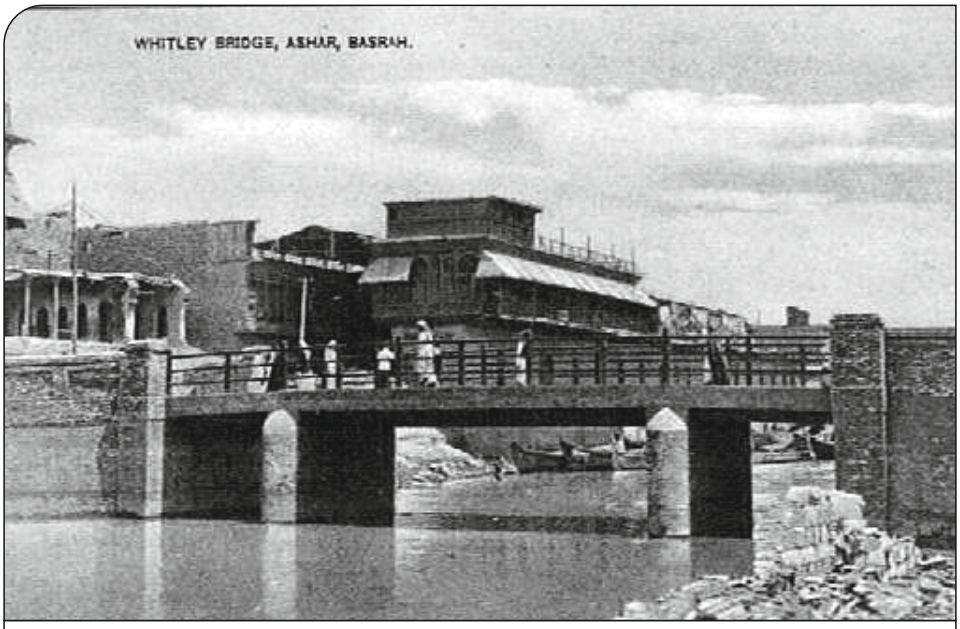
WHITLEY BRIDGE, ASHAR, BASRAH.

The Strand, Post & Telegraphs, Basra.

Ashar Creek, Basra

The Strand, Basra.

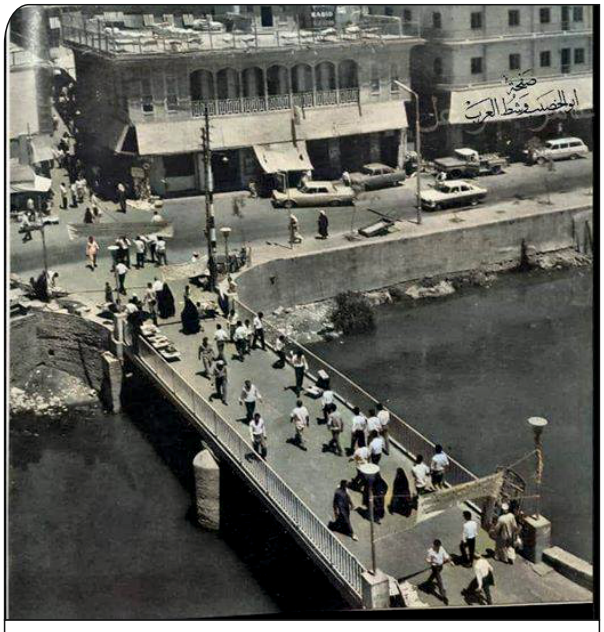
صفحة
الحضارة العربية

الفصل الثالث

امكنة

المناوي الكبرى.. المناوي الصغرى

ارتبطت تسمية بقعة الأرض الملاصقة لشط العرب شرقا بالاحتلال العثماني للبصرة أي في بدايات القرن السادس عشر حيث سميت باسم الوالي العثماني مهناوي باشا. ومن المعروف حاليا ان الحدود الجديدة لهذه المحلة تبتدئ من ساحة التحرير المجاورة لشرطة المرور الى ان تصل الى شارع فلسطين غربا. اما جنوبا فهذه المحلة تطل مباشرة على نهر الخورة لتنتهي مقابل دائرة التقاعد في موقعها الحالي.

والحقيقة التاريخية تقول ان المناوي باشا المشار اليها اعلاه هي ما آلت اليه المنطقة مع تبدلات السنين. هنالك في الواقع تسميتان يمكن اطلاقهما على المكان: المناوي الصغرى والتي جرى وصف حدودها اعلاه.

والمناوي الكبرى. ولقد قمت شخصيا باطلاق هاتين التسميتين انسجاما مع الحدود الحقيقية للمنطقة والتي اختارها العثمانيون لاغراض شتى ادارية وغير ادارية. تبتدئ المناوي الكبرى من مدخل نهر العشار بالقرب من تمثال السياب وتنتهي قبل فلكة السعدي او فلكة الزعيم من جهة الشمال. وسعيا وراء الدقة نجد ان المناوي الكبرى تشمل عدة محلات فقد كانت بريهة والكزارة والعزيزية والسعودية داخل حدودها الإدارية. وكان الشريط الشمالي الذي يضم مصرف الرافدين وسوق حنا الشيخ يضم مجموعة من الابنية والمخازن والقلاع التي شادها

الاتراك لأغراض عسكرية وادارية في آن معا. غير ان المنطقة برمتها لم تكن سوى مجموعة من المسطحات المائية وبساتين النخيل والاشجار

جرى استصلاحها واستغلالها اداريا وعسكريا. وكان هنالك عدد من الدوائر الخدمية موزعة على ما يمكن ان يطلق عليه حاليا بشارع الاستقلال.لنأخذ محلة الكزارة على سبيل المثال. الكزارة هي المدينة التي ولدت فيها، وإن لم اسكنها الا انها بقيت معبرا الى العشار والمدارس التي التحقت بها انطلاقا من محلة المناوي باشا المجاورة.

أصل تسمية الكزارة بهذا الاسم استغرق وما زال يستغرق مني الكثير من الوقت. اول فرضية سمعتها هي ان اصل التسمية مأخوذ من كلمة

الكرازة Carasa اشتقاقا من كلمة Cross بمعنى الصليب بحكم وجود عدد من الاسر المسيحية فيها وفي محلة بريهة المتداخلة معها. لكن هذا الرأي ظل بدون شواهد او براهين.

مع قراءاتي التاريخية المكثفة توصلت الى بعض المعلومات التي يمكن ان تبنى عليها فرضيتي في تسمية اسم الكزارة وحسب المعطيات التالية:

أولا: من بين ما توصلت اليه هو ان المناوي باشا، والتي اسميتها المناوي الكبرى، تبتدئ شرقا من تمثال السياب وجنوبا عند نادي المحامين ايام زمان، على نهر شط العرب. اما غربا فينتهي المناوي عند فلكة السعدي او فلكة عبد الكريم قاسم ليتجه جنوبا لغاية مديرية التقاعد العامة. وهذه حدود المناوي الكبرى التي سميت باسم احد رجالات العهد العثماني (مهناوي باشا).

ثانيا: محلات مثل بريهة والكزارة والعزيزية والسعودية والمناوي المطلة على الخورة تقع جميعها ضمن حدود المناوي الكبرى، حسب المعطيات

التاريخية وهي مناطق متداخلة اسما وفعلا.

ثالثا استغل العثمانيون هذه المنطقة فأ قاموا عليها عددا من السرايات والقشلات او الثكنات والابنية ذات الطابع العسكري والتجاري والخدمي.

رابعا من بقايا التواجد العثماني نجد مبنى الاعدادية المركزية الذي كان قشلة او ثكنة ذات طابع عسكري وقد الحقت بها مقبرة للضباط الاتراك هي ما يطلق عليها العامة حاليا بضريح عبد الله بن علي (ع) في حين كانت المنطقة ايام حياة هذا الامام عبارة عن اهوار ومسطحات مائية وغابات نخيل ليس الا.

خامساً من بين المصالح والخدمات نجد مجموعة من الدوائر المعنية بحفر القبور وبناء القصور والجوامع مثل جامع (سنان) الذي صممه المعماري (سنان باشا) وسمي فيما بعد بجامع المناوي. اضافة لمهام اخرى مفترضة مثل كري الانهار والعنياية بالمقابر.

سادسا بناء على كل ما تقدم ذكره افترض ان كلمة الكزارة قد اشتقت من مفردة (Kazarak) او كزاراك وتعني الحفريات او دائرة الأشغال بالتركي بمعنى انه كانت هنالك دائرة معنية بمثل هذه الخدمات في محلة الكزّارة وبالتالي سميت المحلة باسم دائرة الحفريات ومنها اشتقت كلمة الكزّارة، كما خصص العثمانيون عددا من المقابر لموتاهم فحين اغتيل الوالي التركي فريد باشا وصاحبه متصرف الناصرية على ايدي جهات مجهولة قيل انها تحركت بأوامر من طالب باشا النقيب؛ جرى دفنهما في مقبرة لابد انها كانت ذات اهمية يقع ركنها عند دخول شارع ١٤ تموز قدوما من العشار وركنها الاخر مقابل غرفة تجارة البصرة. والمقبرة حاليا تمت ازالتها طبعا وحل محلها الاسفلت وحديقة طولانية مقابل

كنيسة السبتيين كان اسمها حديقة الشعب. اما المقبرة الثانية اقتطعت من الساحة الشمالية للاعدادية المركزية حيث كان الضباط الاتراك يدفنون فيها، غير ان عامة الناس اطلقوا عليها تسمية مقام عبد الله ابن علي ظنا منه ان احد آل البيت كان مدفونا فيها.

ان أي متابع لخرائط المدينة لابد وأن يكتشف الحدود القديمة لمحلة المناوي التي أطلقت عليها تسمية المناوي الكبرى والتي تضم العديد من المحلات الأصغر مساحة.

محلة السيمر

المحلة الثانية والتي انطمس دورها مع الأيام ومع عوامل الهدم وتشييد البديل هي محلة السيمر التي كانت بمثابة حلقة الوصل بين المركز التجاري والحكومي الانشط الكائن في محلة السيف، هي محلة السيمر التي كانت بمثابة همزة الوصل بين البصرة القديمة وسوق الهنود الناهض مع بدء تواجد الاحتلال البريطاني عام ١٩١٤. لكن كيف انتهى دور هذه المحلة التي كانت تعد البوابة الشرقية للبصرة القديمة.

اعترف انني بقيت اعرف عنها اقل مما يجب ـ قياسها بتاريخها المنصرم ـ لولا السطور التي ادرجها المؤرخ الراحل في كتابه الموسوم (موسوعة تاريخ البصرة) حيث تطرق على الصفحة المرقمة ٣٣٨ الى محلة السيمر قائلا: " محلة السيمر وجسر الملح: هاتان المحلتان متصلتان مع بعضهما وجعلتا فيما بعد محلة واحدة لمختار واحد.وكانت محلة السيمر من المحلات الكبيرة في البصرة في العهد العثماني، تحتوي على مخازن كثيرة وخانات للتجار وفيها تسكن جالية إيرانية كبيرة معظمهم من تجار الجملة ومنهم أصحاب مخازن وحوانيت، وعندما شيد سراي الحكومة العثمانية على جهة جنوبي نهر العشار في القرن الماضي صار فيها سوق كبير

ملاصق إلى سراي الحكومة من جهته الجنوبية وممتد معه ثم اخذ بالامتداد إلى بداية طريق العشار وكان من أعظم أسواق البصرة والعشار خصوصاً عندما كان سيل السفن الكبيرة متيسرا في نهر العشار وصالحا لنقل البضائع من البواخر الراسية في شط العرب.

اندثار دورها التجاري

وفي سنة ١٣٢٢ - ١٩٠٤م شبّ حريق هائل في السوق المذكور وقضى على أموال الناس وإصابتهم أضرار جسيمة لا حد لها ولم يكن في ذلك الوقت آلات للإطفاء مما زاد الطين بلّة وذهب بسببه ضحايا من الأرواح والأموال. أما دار الحكومة والسجن المركزي فلم يصبها من الحريق شيء. ولم يحدث في الحريق أعظم واخطر من ذلك الحريق. وبعد الحرب العالمية الأولى أخذت تتلاشى قيمة السيمر التجارية على الرغم ما حصل فيه من تعمير لان معظم المحلات التجارية أخذت تنتقل إلى العشار الذي اخذ نجمه بالصعود نظراً لتحول البنوك والمصارف والمخازن التجارية إليه وافتتاح المحلات التجارية الأجنبية وبقيت فيه حوانيت صغيرة تحتوي على حاجيات ضرورية وبقالية ثم أخذت تنشأ على أنقاض الحوانيت دور سكنية ومحلات تصليح السيارات. والذي زاد من تدهور المكان انتقال الدار المصرفية منها وجعلها في العشار. و بعد ان أزيلت دار البصرة والعشار على أنقاضها شيدت دائرتان الأولى لرئاسة البلدية والثانية لمديرية الأوقاف وشيد أمامها على ضفة العشار الشمالي بناية عائدة الى المحاكم المدنية والى جنبها مدرسة ثانوية للبنات ثم اخذ البناء ينتشر بتلك الضفة. "

ترى من اشعل النار في مخازن تلك المحلة المطلة على نهر العشار القادم من شط العرب؟ لا توجد اشارات او تفسيرات حول السبب الذي اطاح بالمحلة وقزم دورها التجاري والحياتي بعد ان كانت مجموعة من المباني التجارية والسرايات

والمجمعات تطل على صفحة النهر المتوغل باتجاه محلة السيف التي ستندثر هي ايضا في قادم السنين !

وعودا لكراج العربات الظاهر في احدى الصورتين اكتشفنا مع البحث والتتبع ان تلك العربات كانت جزء من نشاط المواصلات على طريق الساحل القادم من مدخل نهر العشار، مثلما كان يوجد موقف آخر للعربات يتوسط ساحة عمارة النقيب بالقرب من مبنى البريد العثماني والذي كانت عرباته تقوم بنقل الرسائل الى شركات البصرة القديمة ومحلاتها التجارية مثلما كانت تقل الركاب الذاهبين غربا او القادمين من جهة البصرة القديمة.وسنخصص مساحة للتحدث عن واحد من اهم شوارع ذلك الزمان الا وهو (طريق الساحل Strand Road) العتيد القادم من جهة تمثال السياب والمتلاشي امام مبنى المحكمة القديمة.

امكنــة

مبنى الاعدادية المركزية

مدخل شارع الاستقلال ايام زمان

نهر الخورة .. الحد الجنوبي لمحلة مناوي باشا

كراج عربات الخيل عند محلة السيمر

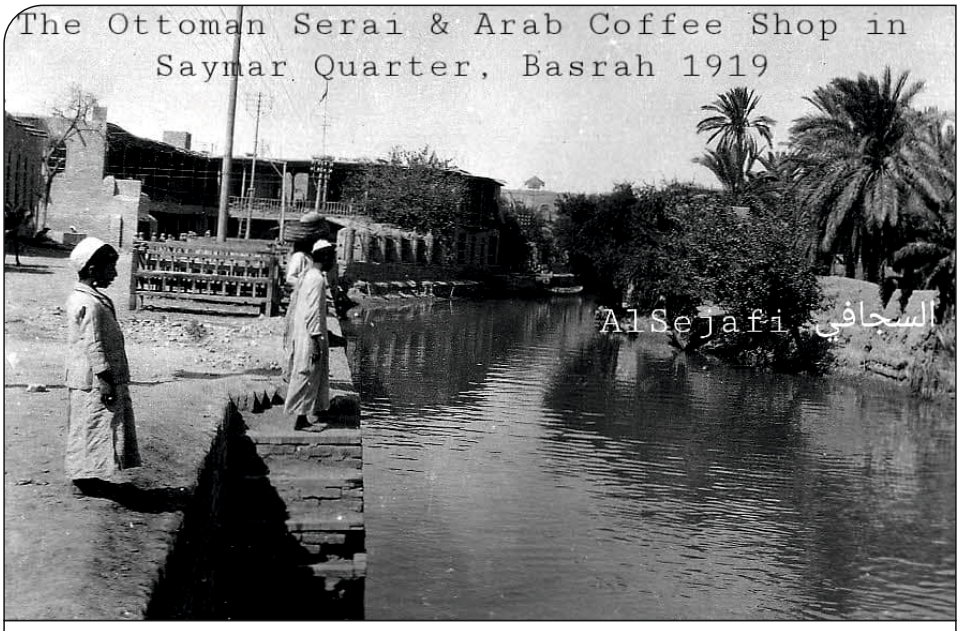

جانب من محلة السيمر قبل الحريق الكبير

الفصل الرابع

شواخص و شوارع
طريق الساحل.. ما الذي تبقى من معالمه؟

زمان.. وحين شق طريق الساحل على الضفة الجنوبية القادمة من البصرة القديمة، لم يكن شارعا متخصصا بمتع النسيان كشارع الوطني، وماكان مخصصا للنزهات النهرية مثل شارع الكورنيش، بل كان على اكثر من موعد ونقطة التقاء مع عدد من الجسور المعلقة على نهر العشار القادم من الدوكيارد والضارب في رحلته الى منطقة البصرة القديمة حيث منطقة السيمر وبدايات البصرة القديمة.

الاحتلال البريطاني ١٩١٤

تاريخيا وخلال سنوات احتضار الحكم العثماني بدءا من سنة ١٩٠٠، لم يكن طريق الساحل سوى ضفة جنوبية لنهر العشار مغطاة باغبرة الطريق واشجار النخيل وتقاطعات انسيابية المسار حيث تتجاور تخوم المناطق والمحلات الشعبية. اما الضفة الشمالية – التي تسمى حاليا طريق عشار بصرة فبقيت ولغاية نهاية الثلاثينات غاصة ببساتين النخيل المطلة على النهار حتى ان الكثيرين من اهالي البصرة اعتادوا التنزه فيها. ولكن وفي سنة ١٩١٤ دخل الانكليز مدينة البصرة بعد معارك طاحنة كانت ستستمر لسنة قادمة اخرى قبل اكتمال الاحتلال.اذ ذاك قام الانكليز بتأمين المداخل الى مركز المدينة مستخدمين طريق الساحل الذي كان يفتقد

لابسط مقومات الانسيابية حيث لم يكن معبدا وقتذاك.

وما ان استقرت قوات الاحتلال داخل العشار حتى اخذت تعزز قدراتها اللوجستية باستخدام ما خلفه العثمانيون من مخازن منشئين بالإضافة لذلك مخازن اضافية للمؤن والبريد والبرق ناهيك عن مباني القيادة العامة headquarters ومهاجع الجنرالات والهنود السيخ والبانيان دون نسيان الحكمة القائلة بأن لكل محارب استراحة فقد اهتموا بالجوانب الترفيهية مؤسسين عددا من النوادي الترفيهية وذات الصلة بالمتع توزعت هنا وهناك بين البصرة القديمة والعشار كبيوت البغاء والحانات وما اشبه.

ان طريق الساحل سينطلق في السنوات التي اعقبت الاحتلال البريطاني باتجاه تأسيس الحكم الملكي منطلقا من النقطة التي شيد فيها تمثال السياب على الكورنيش مرورا بالمخازن والمستودعات والمنشآت العسكرية التي خلفها العثمانيون ليحل الانكليز محلها. ولكي نحدد المحطة الاولى في ذلك الطريق الذي عده الانكليز مسلكا استراتيجيا لقواتهم القادمة من بعد انتصارهم المدوي في الشعيبة وفي معيتهم الاسرى الاتراك والعراقيون.ومع الاستقرار النسبي الذي صاحب تشكيل الحكم الملكي، ومع الزمن، صار لطريق الساحل علاماته الفارقة، فبناية مصلحة التمور التي ستشاد بعد عدد من السنين ستصبح من الطرز العمرانية التي ستميز ذلك الطريق. لكن في عام ١٩٣٨ تم تشييد اسد بابل ليتوسط الفلكة الشهيرة المجاورة لجسر المقام والمرسى الذي تنطلق منه يوميا عشرات الابلام والمهيلات التي كانت تستخدم في نهر العشار بصفته النهر الذي اقترن تدفق ماؤه مع ازدهار الحركة التجارية بين العشار والمركز القديم الكائن في البصرة القديمة. وفي قادم الايام ستجاور تلك الفلكة الشهيرة ما سوف يسمى بشارع الوطني الذي سيصبح شارعا للملاهي. وقد جرى فيما بعد ترصين ضفة النهر بدكة اسمنتية مترافقة مع امتداد نهر العشار غربا باتجاه البصرة القديمة. كما سيعرف ذلك الجزء من طريق الساحل

بمبنى مصرف الرافدين العراقي محاطا بفنادق كانت مخصصا لزوار العتبات المقدسة ومبنى خاص خصص لابناء طائفة البهرة الهندية المهرة في الشؤون التجارية، وبعد ذلك وعلى انقاض بيت الشيخ خزعل سيشاد سوق (حنا الشيخ) وكذلك عمارة حامد النقيب ذات الطراز المعماري المميز. وصولا الى اطلالته الثانية من بعد جسر المقام الا وهي جسر وايتيلي او جسر الهنود فيما بعد.

حين غادر العثمانيون المدينة، لم يخلفوا عمائر او معالم مميزة عدا منشأتهم العسكرية مثل (القلعة البحرية ـ القشلة) في قلب سوق الخضارة

وبعض المباني والمساجد مثل مسجد (سنان باشا) في قلب محلة المناوي باشا وبعض السرايات والأبنية الحكومية وبعض القلاع البحرية بما سوف يطلق عليه بشارع الكورنيش. ولو تتبعنا رحلة طريق الساحل من بعد مروره بجسر الهنود سنجد ان ضفته ستدعم بشريط اسمنتي ومجموعة من المسنايات او المراسي النهرية الصغيرة.كانت الفسحة المطلة على النهر– التي كانت تشكل الجزء الشمالي من منطقة المناوي باشا – قد شقت في اوقات مبكرة لتشكل ما يسمى بطريق الساحل، وسوف تتميز تلك البقعة المحصورة بين جسر المغايز وجسر المتصرفية، وفيما بعد بعمارة النقيب تليها وكالة حافظ القاضي وسينما (شط العرب) فيما بعد والبناية الأكثر اهمية الا وهي بناية البريد القديم. وسوف يتميز الطريق بعلامات فارقة اخرى ستمتد اليها ايدي البرامج الادارية لتقتلعها وتحل محلها عمائر ومصالح اخرى وهي السمة الشائعة التي تميزت بها المدينة بكل محلاتها وشوارعها. نعم البصرة، عبر مراحل تطورها وامتدادها افقيا وعموديا تعكس ظاهرة يمكن أن تطلق عليها بحضارة الغبار. اجل حضارة الغبار هي سمة مدننا الضاربة في أعماق تاريخنا المضطرب.

فيما سبق تحدثنا عن تاريخ هذا الطريق الذي لم يكن – ايام العثمانيين – سوى الضفة الجنوبية لنهر العشار قدوما من محلة السيمر وانتهاء بتمثال السياب. كان

عبارة عن درب ريفي مكسو بالتراب تنطلق عليه عربات الخيل (البلشقات) بدء من كراج السيمر لتنتهي حيث ما سوف يطلق عليه مستقبلا (ساحة عمارة النقيب) حيث كراج عربات العشار. لم يكن ذلك الشارع ذا اهمية لولا استخدامه كطريق موصل للركاب القادمين من البصرة القديمة من اجل الوصول الى اعمالهم في مركز المدينة المستحدث: العشار.

قبل الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٤ ببضع سنين جرى تعبيد طريق الساحل، غير انه اكتسب اهميته الكبرى حين استخدمته قوات الاحتلال البريطاني كهمزة وصل بين القاعدة الانكليزية في الشعيبة وبين مقرات القيادة العثمانية شمالي منطقة المناوي الكبرى أي الشريط المطل على نهر العشار قدوما من تمثال السياب حيث كانت تلك المقار ومخازن العتاد تحتل الجهة الجنوبية المقابلة للداكير. ومن هنا اطلقت قوات الاحتلال على ذلك الشريط اسم (طريق الساحل Strand Street) الذي شهد احضار اسرى الاتراك من قاعدة الشعيبة بعد معارك ١٩١٤ـ١٩١٥ ليتم احتجازهم في قلعة السراي البحرية في قلب العشار. كما ان الشارع اكتسب اهميته مع تشييد جسر وايتلي (الهنود) كونه كان معبرا لجنود الاحتلال الى القنصلية البريطانية حيث نادي الانكليز الذي كان النواة الأولى لشق شارع الوطني او شارع الملاهي فيما بعد.

لكل شارع من شوارع الدنيا علاماته الفارقة، فشارع دينار كان الطريق الموصل بين العشار والمعقل ومن علاماته الفارقة (مكينة السوس) و مبنى شركة (البيسي كولا) وكذلك مبنى شركة السينالكو. اما شارع الاستقلال فقد عرف بمبنى (الاعدادية المركزية)، كما ان شارع الكورنيش عرف بحديقة الامة وتمثال السياب. والامر نفسه ينطبق على طريق الساحل، واليك عزيزي القارئ بعضا من علامات ذلك الطريق الفارقة:

فلكة اسد بابل: انشأت سنة ١٩٣٨ يتوسطها تمثال مقلد لتمثال اسد بابل

الاصلي. وتعد هذه الفلكة علامة فارقة مشتركة لكل من طريق الساحل وكذلك تعد بداية لشارع الوطني اضافة الى ان الفلكة تعد مسربا الى منطقة مقام علي.

بناية البنك البريطاني للشرق الاوسط: تميزت بتصميمها العمراني الجميل

قبل ان تطيح بها معاول الهدم اواخر الستينات.

جسر وايتلي: الجسر الذي سيسمى فيما بعد بجسر الهنود. انشأته شركة وايتلي البريطانية على انقاض جسر العشار العثماني الذي كان يفتقد لمتانة الجسر الذي خلفه.

سوق حنا الشيخ: بني على انقاض بيت الشيخ خزعل حيث اشترت المكان اسرة الشيخ خزعل المنحدرة من الموصل والمقيمة لحين من الزمن في العمارة ومن ثم سكنت البصرة واصبحت في طليعة الأسر البصرية الثرية قبل هجرتها الى بلدان العالم الخارجي.

عمارة النقيب: شيدت من قبل مالكها المرحوم حامد النقيب وأصبحت من معالم الشارع المميزة بل من معالم البصرة قبل ان يصار الى هدمها لتحل محلها عمائر تفتقد للذوق والدقة العمرانية.

شركة حافظ القاضي: ومعروف ان مقرها في بغداد في الساحة المسماة باسمها. اما فرع البصرة فقد تولى ادارتها المرحوم (مكي الحاج محي الدين). وموقعها كان بالضبط في موقع شركة المخازن المركزية. كانت صالتها تعرض السيارات الامريكية والاجهزة المنزلية كالثلاجات والفريزرات والمدافئ وغيرها، لكنها توقفت في بداية الستينات مع اندلاع ثورة تموز ١٩٥٨.

سينما شط العرب الصيفي: افتتحت في بداية الخميسنات وموقعها يجاور فرع شركة حافظ القاضي. شاهدت فيلم (روبنسون كروزو) على شاشتها، كما انني شاهدت فيلم (سعيد افندي) على شاشتها.

دائرة بريد العشار المركزي: يفصله زقاق كنيسة الكلدان عن سينما شط العرب. وقد سبق لي ان كنت واحدا من عملاء دائرة البريد حيث كنت اوفر مبالغ صغيرة بعد ان خذلني مصروف الجيب بحكم ظروف ابي المادية ن وذلك كحلم بافتتاح مشروع صغير كان بالامكان ان يدر علي ايرادا يتيح لي امتلاك ما كنت اصبو لامتلاكه بدءاً بالدراجة الهوائية.

على ان المجال لايتسع لذكر علامات اخرى ميزت ذلك الشارع منها ما مكث لفترات قصيرة ومنها ما بقي المبنى الا انه تحول لتقديم خدمات وعروض اخرى، فمع امتداد طريق الساحل كانت هنالك في ركن شارع الاستقلال الايمن - في موقع مطعم الافراح سابقا - ثمة محطة للبانزين يبدو انها شيدت في الاربعينات لكنها ازيلت بعد وقت قصير.ومن علامات الشارع المميزة مطبعة التايمس وسينما الحمراء الجديدة الشتوي تليها سينما الحمراء الجديدة الصيفي، وكذلك فلكة السعدي او فلكة الزعيم الراحل (عبد الكريم قاسم) تليها دائرة الاطفاء.

ويمضي طريق الساحل متوجها ناحية محلة السيمر حيث كانت هنالك علامات فارقة اخرى ازيلت بفعل احداث شتى مثل مخازن السيمر التجارية العملاقة والتي لم يتح لنا ان نجدها ماثلة امامنا بحكم السن وكذلك السراي الحكومي الذي جرى اقتلاعه من اجل تمديد الشارع باتجاه البصرة القديمة ليتلاشى ذلك الشارع مع الزمن، شأنه شأن ذنائب نهر العشار المتلاشي في اقاصي الغرب عند المستشفى الجمهوري!

حكايات شارع دينار الساخنة.. استذكارات شخصية

يحتفظ رأسي المترع بالذكريات بكم هائل من الحكايات. شوارع المدينة، على سبيل المثال، تعد بمثابة الشرايين المتدفقة بدماء الحياة اليومية لمدينتي المكتوية بجمر المعاناة. فشارع الوطني لأيام المتع البريئة وغير البريئة وشارع الاستقلال كان

جسري الى الدوام المدرسي ولي فيه حكايات. غير ان لشارع (دينار) ذكريات استثنائية، مرعب بعضها بحكم صغر سني وتجربتي وحافل بالمخاطر التي لو لم انجُ منها لما وجدتني الآن أدون بضع حكايات عن هذا الشارع الذي يبتدئ من تمثال العامل بالقرب من ساحة ام البروم لينتهي او لا ينتهي في بدايات منطقة المعقل حيث القاعدة البحرية سابقا وحيث المقر المؤقت لمركز محافظة المدينة المطوق بهتافات الاحتجاج وشعارات المعتصمين حاليا. اروي لكم ثلاثا من حكايات هذا الشارع الذي لم يتوقف يوما عن الغليان مثله مثل قط على سطح صفيح ساخن:

الحكاية الاولى ـ اواسط الخمسينات

كنت وقتذاك صغير السن لا افقه من أمور الدنيا الا النزر اليسير. اعتقد انه كان العام ١٩٥٣ وكنت وقتها اسكن في بيت عم والدي وابنائه الاربعة. وقد اصطحبني احد اعمامي الى مطار البصرة الدولي لغرض استقبال شقيقه يوسف الذي كان عائدا من رحلة علاج في الخارج بسبب اصابته بآفة في الكبد. ويبدو اننا استأجرنا واحدة من سيارات الاجرة التي كانت متوقفة عند مدخل المطار فسارت بنا السيارة مارة بشارع دينار من اجل إيصال عمي المريض لبيت الاسرة الكائن في المناوي باشا. وما ان اقتربت سيارتنا الأجرة من فلكة (الغاز) المجاورة لمعمل البيبسي كولا حتى اندلع الرصاص باتجاه سيارتنا المستأجرة. لحظتها اصبت بفزع ما له حدود وبكيت بلا انقطاع.ومع الايام علمت ان مرورنا بذلك المكان الساخن ارتبط بإحدى المظاهرات الاحتجاجية، ربما لعمال الموانئ الساخطين على الانكليز والسلطة الملكية وربما استنكروا على صاحب ذلك التاكسي ان يعمل في يوم اعتبره المحتجون علامة احتجاج اقترن بالتوقف عن العمل في ارصفة الموانئ. ويبدو ان السائق اضطر للتوقف ونزل للمتظاهرين موضحا لهم بأنه كان يقل شخصا عائدا من العلاج خارج العراقي فأطلقوا سراح السيارة لكن ذلك اليوم بقي محفورا كالوشم في الذاكرة !

رحم الله عمي الفقيد الذي توفي من بعد رحلة العلاج ببضعة شهور.

الحكاية الثانية ـ استراحة المحارب

بعد سقوط النظام الصدامي الذي جاء محصلة للاحتلال الانكلوـ امريكي، انتقلنا للسكنى في نصف بيت من بيوت شارع السايلو ليصبح شارع دينار طريقي اليومي الى العمل في معهد المعلمين بمركز العشار. وقد تميزت الفترة التي اعقبت انهيار النظام بنوع من الهدوء المؤقت. وشخصيا وبحكم ركوبي شبه اليومي في احد باصات كراج المربد عبر شارع دينار الى المعقل، تعرفت على نماذج شعبية شتى من سكنة تلك المناطق وكانت تلك النماذج مؤلفة من نسوة كن يعشن شظف العيش ومعلمات وطالبات مدارس اعدادية وكليات وفتية ورجال مخضرمين برؤوس حافلة الأفكاروالحوارات الشعبية التي كانت تشكو سوء الحال بأسلوب تهكمي ساخر. والحقيقة انني كنت استمتع بتلك الحوارات والحكايات والتعليقات الساخرة التي كانت تضيف لمخزوني القصصي الكثير الكثير: شحاذون، متعففون ومتعففات، عقلاء (نص ستاو) على حد تعبير احد الركاب، مجانين وفتية مهووسون بالآراء السياسية والدينية المتطرف بعضها والمعتدل بعضها الآخر.

ولو اردنا قول الصواب فأن محاربنا، شارع دينار لم ينعم باستراحة المحارب الا لفترات قصيرة لم تكن تتعدى بضعة ايام او اسابيع، كحد اقصى. لقد نجوت شخصيا خلال رحلات ذهابي للعمل او ايابي للبيت من عدد من المخاطر التي كادت ان تقودني الى حتفي كان من بينها سقوط عدد من صواريخ مدافع الهاون على مقربة من الباص الذي كنا نستقله وذلك بالقرب من معمل الطحين في مناسبة، وفي وسط ساحة معهد المعلمين في مناسبة اخرى لقي عامل او عاملان حتفيهما بينما اصيب عدد من طلاب المعهد اما نحن فقد نجونا باعجوبة من سيل تلك الصواريخ المسددة الى اهدافها المرسومة او غير المرسومة.

الحكاية الثالثة ـ يوم ٌ بونا بأعجوبة

كان ذلك في عام ٢٠٠٥ على وجه التقريب:

توجهت بنا حافلة (الكيا) المملوكة لإحدى الصحف المحلية المرموقة الى بيوتنا مخترقة شارع دينار باتجاه منطقة السايلو حيث كنت اسكن ومنطقة الجبيلة حيث مسكن احدى الزميلات على ان يمضي ـ سائقنا بمسؤول قسم الحاسبة في تلك الجريدة والذي كان يسكن في منطقة (الأبلة). وما ان اجتزنا فلكة الغاز واتجهنا الى مقاصدنا حتى لاح لأعيننا مشهد احدى الدبابات المدرعة والتي كانت تابعة للجيش البريطاني قادمة من جهة تقاطع بهو الادارة المحلية. كان سائقنا على وشك دخول شارع السايلو حيث بيتي حين لمح مسلحا مدججا بسلاح (آربيجي) يبدو انه كان مسددا صوب تلك العربة المزمجرة، فعلمنا بأننا امسينا بين نارين فاتخذ السائق قراره بالعودة الى فلكة الغاز من اجل الابتعاد عن دائرة الصراع ولكن يبدو ان أوان ذلك القرار جاء متأخرا اذ انطلقت قاذفة الآربيجي باتجاه الدبابة ليهتز المكان بما يشبه الزلزال.غير ان سائقنا واصل الإقفال راجعا بطريقة الريفيرس الى ان شارفنا فلكة الغاز فدخلنا الى شارع البوابة الشمالية لمبنى شركة النفط بعد ان حمدنا الله على نجاتنا من موت محتم!

اليوم ما زال شارع دينار حافلا بأحداث المظاهرات السلمية والاعتصامات والقنابل المسيلة للدموع. كنت وما زلت اتمنى ان يعود هذا الشارع منفذا الى جزيرة السندباد ومطار البصرة القديم وملاعب الصغار والمتنزهات المطلة على ضفاف الشط.

فهل تتحقق أحلام الحالمين؟!

شواخص وشوارع

١ ــ فلكة اسد بابل

٢ ــ مصرف الرافدين

٣ ـ الركن الشرقي لسوق حنا الشيخ امام طريق الساحل

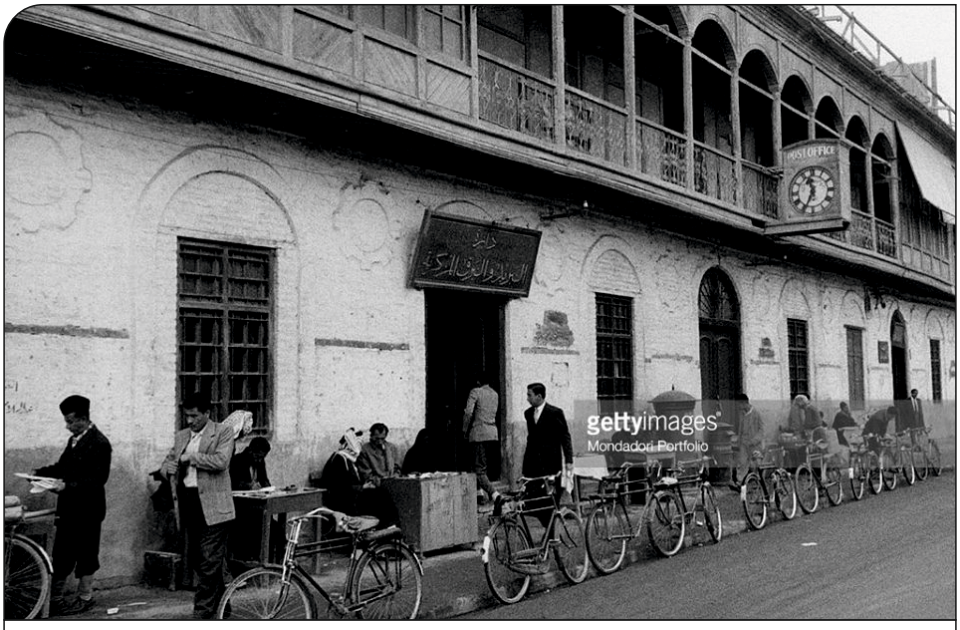

٤ ـ مبنى البريد القديم

٤ ــ مبنى البريد القديم

٥ ــ باب شرقي الطراز لكنى زار طائفة البهرة القادمين من الهند لغرض زيارة المراقد المقدسة

٦ ـ مشهد آخر لطريق الساحل حيث تبدو عمارة النقيب في آخر الصورة

٧ ـ طريق الساحل قبل تعبيده في بداية القرن العشرين قادما من البصرة القديمة

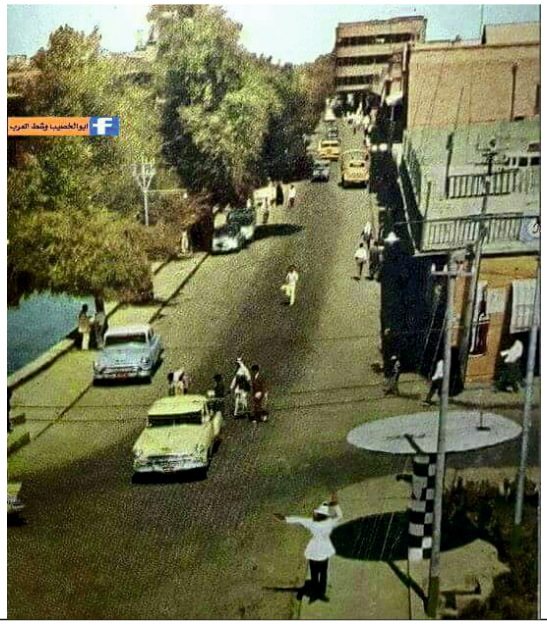

٨ ــ طريق الساحل ايام الاحتلال البريطاني حيث تشاهد القوات الهندية متجهة الى قاعدة الشعيبة .

٩ ــ محطة بانزين تقع في ملتقى بريهة وشارع الاستقلال بالقرب من قيصرية حجي جاسب ، مطلة على شارع الساحل .

١٠ ـ فلكة ام البروم حيث مبتدأ شارع دينار الذي يربط المعقل بالعشار.

الفصل الخامس

اسواق

فقراء، أغوات ويهود:

حكايات من سوق البصرة القديم

التقيته في احدىٰ بقالات سوق البصرة القديم. كنت حينها اسأل عن صنف نادر من البرتقال اسمه (البرتقال الصيني) فأجابني ذلك الرجل الوقور ساردا تاريخ ماكنت ابحث عنه فأدركت انني أمام رمز من رموز المكان، في تقلباته الزمنية والمكانية. ادركت جيدا ان ابا احمد كان وما زال شاهدا علىٰ سوق البصرة الشعبي القديم وما جاوره من بيوت بليت أساساتها روت حيطانها آلاف الحكايات وحواديث الزمان.

منذ بداياته كان سوق البصرة القديم لتلاقي باعة وبائعات ومشترين ومشتريات يفدن الىٰ السوق من اجل التبضع او عرض حاجياتهن البسيطة من مكانس ومهفات خوص وليف استحمام وشدات خضار ومنتوجات البان وغيرها كثير.

حدثني ابو احمد عن ذكرياته في سوق البصرة القديم وما جاوره من بيوت ومقابر ومساجد: " كان معظم اصحاب بيوت هذا السوق من اليهود والذي ضم توراتين (بيتين يهوديين للعبادة): التوراة القديمة والتوراة الجديدة. وقد اعتاد في الصباح الباكر التوجه مع واحد او اثنين من اصدقائه لمبنىٰ التوراة القديم من اجل اطفاء الكهرباء والنفخ في اللمبات حيث كان احد الفراشين يقوم بإعطائنا (القران) كأجر لنا. وكان البالغون من اليهود يعتمرون السدارات السوداء. وكنت شخصيا

ابتاع السويكة من شخص يهودي كان يكنى (سلمان بشّة) بعشرة فلوس لكل ربطة. وكنا نشاهد اليهود وهم يعرضون الرز المفروش على البلول جمع البلة (وهي الحصيرة المصنوعة من خوص النخيل). ولم يكن اليهود يعبأون بالربح فقد كان ربحهم من الكواني (اكياس الرز) فقط. ذلكم كان اسلوبهم بالبيع. كانت بضاعة احد العطارين اليهود تلاقي رواجا كبيرا لاسيما من قبل النسوة لانه اعتاد ان يضيف كمية من علك الماء هدية مضافة لكل سلعة تشترى من دكانه ذاك.

مدرسة الخليل ابن احمد

ويستذكر ابو احمد المدرسة الابتدائية التي التحق فيها فيقول: " كان بناؤها من سيور الجندل شيدت على الطراز العثماني حيث كنت واحدا من تلامذتها، ايام نوري السعيد. وكان من معلميها محمد خنفر، والاستاذ احمد، وعبد الجبار والاستاذ منعم العلاو وآخرون. كان ذلك ايام نوري السعيد حيث كنا نعطى كتغذية مدرسية التمر والحليب ودهن السمك، وكان دوامها متواصلا حتى بعد فترة منتصف النهار. "

السوق القديم

ويواصل ابو احمد التحدث عن سوق البصرة القديم قائلا: " بدأ سوق البصرة بأثني عشر بقالا وجلهم من باعة الرقّي الاسود المسمى (الجرناف) نسبة الى قرية الجرناف القريبة من القيارة في الموصل.وكان، لكبر حجمه لايباع بشكل كامل انما كان يشرح بشكل حلقات تلف بقصاصات جرائد الى ان جاء الرقي الشاهودي، ايام حكم الراحل عبد الكريم قاسم، وكان في العادة يجلب بأبلام. وما زلت اذكر الدلال مطشر وهو من ابناء قصبة (المدينة) احدى قصبات القرنة. وكان صارما في عمليات بيع الرقي وفي تعامله مع ممثل الجمعيات الفلاحية فإن وجد فيه تكاسلا

صـرخ به (نيّح) اي انصـرف بعيدا عن المزاد."

ويحدثنا ابو احمد عن البقال التركماني الأصل ناجي صالح الذي كـان لديـه خـان تأتيه الواردات من شتى أنواع الخضروات من قرى ابي الخصيب ومن الزبير والقرنة والمدينة معبأة بأقفاص تطلق عليها تسمية (الركوك ومفردها رك). وكان لديه حمـال من بلاد فارس يدعى رمضان كان قوي البنية رغم قصـر قامته. وكانت مهمة الحمال – في اوقات العصـر – حمل قبان الخان الثقيل ووضعه في الساحة المجاورة لمقهى ام السباع كي يقام مزاد بيع الرقي في آخر النهار. وعرف عن ناجي انه كان قوي البنيـة تكاد صفعة واحدة منه ان تصـرع المصفوع ولذا ادرج اسمه في لائحة المخفر القريب مع لائحة تعهد من قبله بعدم صفع أي شـخص لشـدة بطشـه وخـلاف ذلـك فانـه سـيغرم مائة دينارا عدا ونقدا!

وجهاء وأغوات

وبعد استراحة قصيرة استأنف ابو احمد سـرد احداث سوق البصـرة القديم ومـا جاوره من محـلات. فـذكر ان ارض المشـراق القـديم كانـت ملكـا صـرفا لفـالح السـعدون والـد القـاضي عبـد الحميـد السـعدون وكانـت تطلـق عليـه تسـمية (السعدونية). اما القسم الثاني من المشـراق القديم فكان ملكا لليهـودي سـالم عابـد الذي وجد مخوقا في صبيحة يوم من ايام البصـرة. اما أملاك (آسـيا النقيب) فكانت تمتد من جامع الكواز باتجاه جامع العرب بجوار مقبرة اليهـود. ومـن ملامـح هـذه المنطقة مرقص (اولغا) حيث ذكر ابو احمد بأنها بريطانية الاصل لكن اظـن انهـا مـن جورجيا قدمت الى لبنان ثم اتجهت الى البصـرة حيث فتحت مرقصـا مجـاورا لمبغـى البصـرة القديمة والذي الغي رسميا عام ١٩٥٦ بتقرير مـن الشـيخ جـلال الحنفـي الذي تفقد احوال المكان

واطلع على بؤس احوال المكان وساكناته ممن أجبرتهن الحياة على ممارسة البغاء في فترات مابعد الاحتلال البريطاني ودخول اعداد كبيرة من البحارة الأجانب وموردي البضائع من شتى انحاء آسيا والخليج.

أســـــواق

١ــ ابو احمد .. شاهد على احداث سوق البصرة القديم

١ــ ابو احمد .. شاهد على احداث سوق البصرة القديم

٣ ــ مقهى ام السباع من الداخل

٤ ــ سيارة آل باش اعيان امام منزل الاسرة في قلب سوق البصرة

الفصل السادس

مدارس: الرجاء العالي انموذجا

في اواسط الستينات وقع بين يدي كتاب حمل عنوان (أقدّم اصدقائي العرب) لمؤلفه جون فان ايس تحدث فيه عن تجربته كمؤسس ومدير للمدرسة الامريكية في البصرة او مدرسة الرجاء العالي كما عرفت رسميا وشعبيا. وبحكم عدم الاستقرار الذي لازم حياتي فقدت تلك النسخة النادرة من الكتاب لهذا السبب او ذاك. ولكن من هو جون فان ايس او وانيس كما اعتاد ابناء الجنوب العراقي مناداته؟

يقدم الكاتب سلام كاظم فرج في مقالة له نشرها على صفحات (المثقف) الالكترونية نبذة عن الدكتور فان ايس من واقع تماس والده المباشر معه عبر حكاية تشع بالعديد من الدلالات التي تمنحنا صورة اكثر وضوحا عن شخصية عاشت في الجنوب لما يزيد عن السبعة واربعين عاما ولعبت دورا هاما في تطوير الجانب التربوي للتلميذ العراقي لما يزيد عن الستة عقود (١٩١٠ ـ ١٩٧٢). يقول الكاتب سلام كاظم: " الدكتور فانيس حاصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت وعلم التاريخ.كتب عن دخوله الى ارض العراق ومعيشته بين عشائر العراق والناس البسطاء في كتابه (أقدم أصدقائي العرب).. الذي كتبه باللغة الانكليزية. وترجمه في الاربعينات من القرن الماضي..جوزيف عبو.. من أهالي الموصل.. وطبعت النسخة العربية في مطبعة موصلية. لقد سجل جون فانيس إنطباعاته عن الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة الممتدة بين بداية القرن العشرين ومنتصفه.. وركز في انطباعاته على سكان الاهوار وعشائره.. وطبيعة عاداتهم وتقاليدهم وتفكيرهم. وأورد بعض المعلومات عن جذورهم العريقة وجذور الديانات التي تمتد الى ماقبل

الميلاد وتحدث عن الصابئة المندائيين شارحا اسباب تمركزهم قرب الأنهار "

موافقة الباب العالي

في بادئ الامر لم يكن فانيس مهيئا من الناحية المهنية لأخذ مهمة تأسيس تلك المدرسة على عاتقه، غير انه كانت لديه قناعة راسخة بأن العملية التربوية كانت بحاجة الى اعتراف رسمي من قبل السلطة العثمانية. وفي ضوء ذلك التوجه أجرى مفاوضات شاقة مع الجانب التركي مستعينا ببعض الشخصيات ذات النفوذ الواسع كطالب النقيب والشيخ خزعل مع القيام بأكثر من رحلة تفاوضية الى الباب العالي الى ان تمكن اخيرا من استحصال ارادة عليا من لدن السلطان عبد الحميد نفسه موقعة بالحبر المذهب بالموافقة على تأسيس مدرسة ابتدائية للبنين وأخرى للبنات.

لقد تطلب مشروع التأسيس عامين إضافيين للتنسيق مع الجهات الرسمية المحلية من اجل استحصال موافقتهم المبدئية بقدر تعلق الامر بالأبنية وصنف الدراسة التي سيتم اختيارها والكتب المقررة لتلامذة المدرسة والمعلمين الكفء.

في عام ١٩١٢ شرعت المدرسة أبوابها للتلاميذ بواقع ثمانين تلميذا مثلوا شتى شرائح المجتمع البصري. نصف العدد تقريبا كان للمسلمين والبقية من طوائف مختلفة. وبعد ستة شهور افتتحت مدرسة للبنات بادارة السيدة دوروثي فيرمان فانيس زوجة المؤسس لتصبح اول مدرسة للإناث في البصرة. وقد استلهم اسم المدرسة من كلية الرجاء في هولاند ميتشيغان التي تخرج منها فانيس ذو الاصول الهولندية كما يتضح من اسمه.

اشكاليات اللغة

كان ايمان الدكتور فان ايس راسخا بان ثقل مسؤوليته لم يكن يرتكز على تهيئة شبيبة متأمركة بل يرتكز على بيئة تلامذته وعلى حضارتهم المحلية. وضمن ذلك التوجه اعتمدت العربية كلغة لجميع المواد الدراسية – عدا مادة اللغة الانجليزية

بطبيعة الحال – لا سيما وان الدكتور فان ايس اتقن اللهجة العراقية بعد الفصحى التي كان درسها في معهد برنستون التقني بنيو جيرزي من واقع حبه الشديد للغة العربية. اما فيما يتعلق باللغات الاخرى فقد عوملت كمواد دراسية مستقلة فالتركية درست لكونها لغة الدولة المستعمرة (بكسر الميم) في حين درست اللغة الفارسية بحكم الجيرة والمصاهرة والانضواء، حتى ان الشيخ خزعل قام بتسجيل تسعة من ابنائه واحفاده في المدرسة. اما اللغة الفرنسية فكان لغة بعض الأوساط الدبلوماسية. غير ان اللغة الانكليزية شهدت تطورات مضطردة من واقع كونها لغة النشاط التجاري والكولونيالي على حد سواء. عموما كانت دراسة هذه اللغات اختيارية، غير ان الانكليزية استخدمت وإنْ بشكل محدود في مواد كالرياضيات والجغرافية. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى اوقفت الإدارة تدريس تلك اللغات الرديف مقتصرة على استخدام اللغة العربية بشكل رئيس والانكليزية الى حد ما.

المعلمون والمناهج التعليمية

العقبة الأخرى التي واجهت فانيس تمثلت في صعوبة الحصول على الكادر التدريسي المؤهل. ولتذليل تلك العقبة استعان بشخصيات جرى استقدامها من ماردين وديار بكر امثال عزيز مختار، الياس مختار، جليل عمسو الذي سيقوم فيما بعد بإعادة ترجمة كتاب فانيس (أقدّم اصدقائي العرب) الذي عرض في المكتبات العراقية في حقبة الخمسينات، ومن الشخصيات التي استعان بها كرابيت عبد الاحد الذي سيتولى في قادم السنوات منصبا كقس للكنيسة البروتستانتية الايفانجليكية في البصرة بالاضافة الى شخصيات مؤهلة اخرى. اما بالنسبة للمناهج التعليمية فقد بذل جهودا مضنية في سبيل توفيرها عبر اتصالاته بمطابع ومكتبات كل من القاهرة وبيروت والقدس والهند، حتى تمكن اخيرا من ضمان توفيرها لتلامذة المدرستين. غير ان الامور اخذت بالتبدل مع تأسيس الدولة العراقية في بداية العشرينات من القرن الماضي وتبلور الوعي المعرفي للشخصية

العراقية واستعانة وزارة المعارف بخبرات عربية في المقام الاول في صياغة المناهج الرسمية مثل ساطع الحصري، محمد بهجة الاثري، طه الهاشمي، سامي شوكت وآخرون. وقد استطاع جون فانيس ان يمسك العصا من المنتصف اذ في الوقت الذي حافظت مدرسة الرجاء العالي على شخصيتها، لم تجد بأسا في الاستعانة بخبرات المناهج الحكومية.

حكايتان متضاربتان

في عام ١٩٣٩ أي بعد ثمان وعشرين عاما من تأسيس مدرسة الرجاء العالي، غادر جون فانيس البصرة مع زوجته دوروثي متوجها الى بلده الأم في اجازة أرادها ان تكون قصيرة، الا ان اندلاع الحرب العالمية الثانية وتقطع سبل المواصلات البحرية والجوية بسبب تهديدات المانيا النازية منعاه من العودة الى مقر عمله الى البصرة. ولكنه افلح في نهاية الحرب في العودة مستعيدا منصبه كمدير لتلك المؤسسة التربوية. وما ان انصرم عامان تقريبا حتى داهمه المرض واضطره لتقديم طلب التقاعد قبل ان توافيه المنية في سنة ١٩٤٩. وأمامي حكايتان تتحدثان عن أيامه الاخيرة إذ وردت في كتاب (عبير التوابل والموانئ البعيدة) لمؤلفه احسان وفيق السامرائي المعلومة التالية: " واستمر الدكتور فانيس يعمل في البصرة حتى يوم ٢٢نيسان سنة ١٩٤٩ عاد بعدها الى اميركا بعد غيبة ٤٩ سنة، والأغرب ان الاب فانيس توفي في ٢٦ نيسان ١٩٤٩ بعد أربعة ايام من وصوله الى وطنه !! " ص ١٩٠.في حين ان رواية اخرى وردت بشكل رسالة من غوسلينك المدير الذي حل محل فانيس اثناء غيابه ثم عاد ليترأس ادارة المدرسة حتى تقاعده عام ١٩٦٦. جاء في الرسالة ان فانيس: " توفي في البصرة في ١٩٤٩. وكان قبلها يدعو الرب ان يحقق امنيته على ارض البصرة وسط من تعهدهم عقلا وروحا. وقد استجاب الرب لدعائه ليسجى جثمانه في مقبرة المكينة بالبصرة قاصدا مقبرة الانكليز القريبة من مكينة السوس بالحكيمية. امامنا هنا روايتان لايشك في درجة موثوقيتهما. لكن أي

الروايتين هما الأقرب للصدق؟ هذا الامر بحاجة الى بحث دقيق.

قدم الأب او الدكتور فخريا جون فانيس ضمن البعثة التبشيرية الامريكية في زمن لم تكن الولايات المتحدة ذات تطلعات استعمارية بارزة – شأنها وشأن بريطانيا وفرنسا وايطاليا ـ فهي لم تشترك في الحرب العالمية الاولى التي نشبت في ١٩١٤ الا في نيسان ١٩١٧ أي بعد سنتين ونصف من حرص ساسة الدولة على ابقائها على الحياد. وتكرر الأمر في الحرب العالمية الثانية اذ بقيت الولايات المتحدة على الحياد وفي معزل عن ارهاصات الحرب التي اندلعت في الاول من ايلول ١٩٣٩. غير انها اضطرت الى خوض الحرب اثر بيرل هاربر التي شنتها اليابان ضد المصالح الامريكية في السابع من كانون الاول ١٩٤١.

ارى شخصيا ان هذه المحصلات لا تعفي البعثة التبشيرية من الدوافع الدينية والسياسية في المقام الأول، غير ان نظرة متفحصة لمجمل تجربة مدرسة الرجاء العالي تعكس نقاطا ايجابية اكثر من تلك السلبية حيث اسهمت المدرسة الامريكية في تطوير العملية التربوية متمثلة بالخروج من وقائع الفترة المظلمة التي رافقت النفوذ العثماني على مدار قرون. كما ان تقييما موضوعيا لتجربة الدكتور فانيس

يعكس طبيعة دوره الروحي والتربوي على الواقع التربوي في الجنوب العراقي عموما وعلى العراق بشكل عام.

لقد أسهمت المدرسة في تخريج المئات ممن أسهموا في بناء العراق الحديث ولعبوا أدوارا كبرى في عملية البناء السياسي والحضاري حيث قدمت رموزا علمية وادبية وسياسية امثال اسرة مختار وعمسو اللتين خدمتا الطب من خلال افتتاح صيدليتي (مختار) و(عمسو او الصيدلية الوطنية) كما درس فيها ابناء الشيخ خزعل واحفاده وسواهم من ابناء المدينة من فقرائها ووجهائها على حد سواء. ويذكر ان مؤسس الحزب الشيوعي (فهد) كان من طلبة مدرسة الرجاء العالي شانه شأن

آخرين تخرجوا منها وقدموا خدمات كبرى لبلدهم.

خلاصة القول ما أورده الكاتب سلام كاظم عن الأب جون فانيس: " بغض النظر عن الأسباب التي دعته للقدوم الى العراق والاستقرار فيه (والتي ظاهرها اسباب تتعلق بالتبشير الديني المسيحي) لابد من الحديث عن جهوده وخدماته التي قدمها للمجتمع العراقي، البصري خاصة ودوره في مكافحة الأمية ونشر ثقافة التسامح والمحبة.

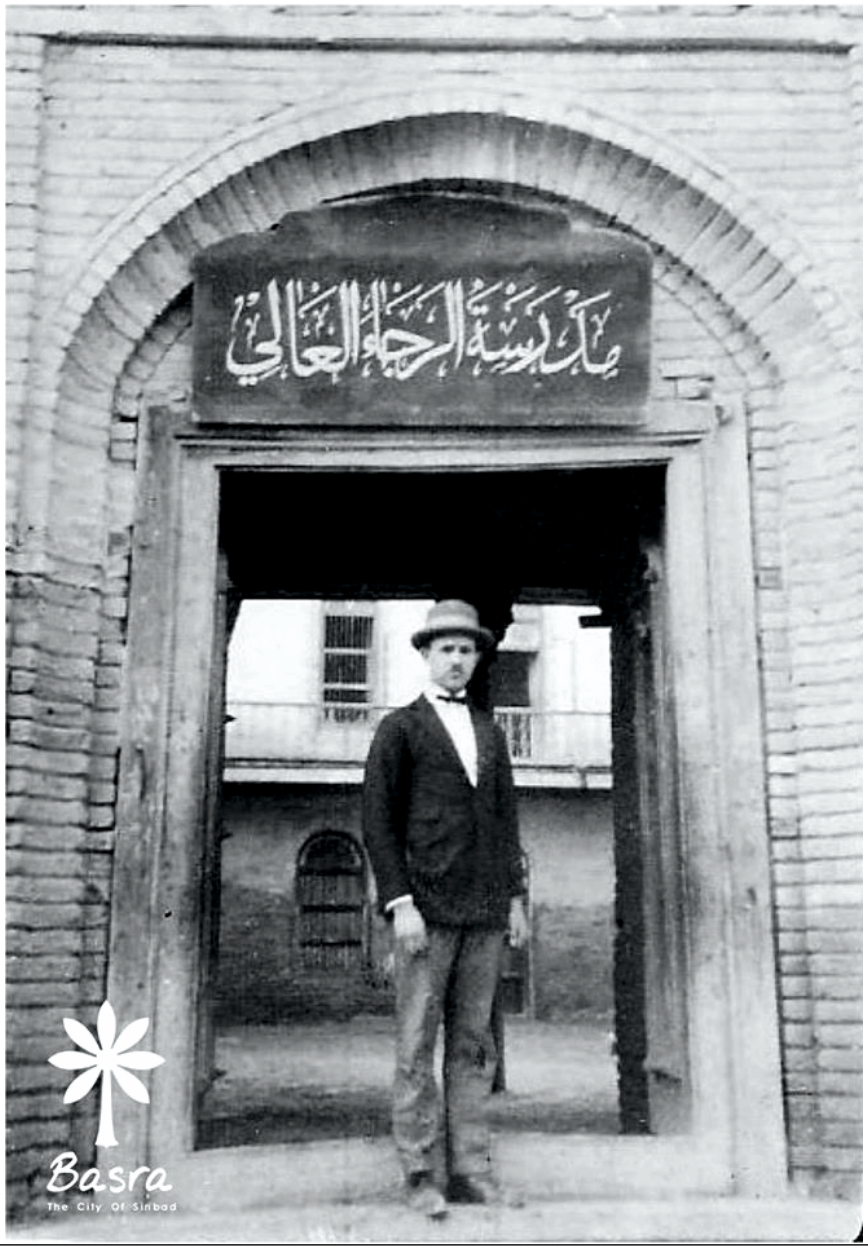

واجهة مدرسة الرجاء العالي في نظران

الفصل السابع

صفحات مطوية من تاريخ البصرة الصحي

على الرغم من الإهمال الملحوظ لأرض السواد خلال فترة الاحتلال العثماني والذي شمل شتى مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والخدمية، إلا أن الدولة العثمانية ـ في سعيها المحموم للتنافس التجاري- أنشأت السلطات العثمانية محجرا صحياً في الفاو كانت تطلق عليه تسمية (الكرنتينة Quarintine) وكذلك في منطقتي أبي الخصيب والصالحية.

مواقع حربية

في تشرين الثاني من عام ١٩١٤ احتل البريطانيون مدينة البصرة شاقين طريقهم باتجاه شمال البصرة ملتحمين مع القوات العثمانية في أكثر من موقعة حربية كانت معركة الشعيبة من أبرزها، وقد توّجت تلك المعارك بتقهقر القوات العثمانية ليشق الجيش البريطاني طريقه باتجاه الكوت ومن ثم بغداد. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وجد الانكليز أنفسهم أمام عقبات تنظيمية يومية ذات صلة بسير الحياة على الصعيدين العسكري والمدني. فبدأوا باحتلال قلعة العشار (القشلة) التي أنشأها العثمانيون من اجل ترسيخ وجودهم الاستعماري والتجاري الهش. واستفاد المحتل البريطاني من مدخل نهر العشار فشيدوا على ضفته الشمالية والجنوبية مستودعات كبيرة للسلاح والوقود والترميمات إضافة إلى مرسى الدوكيارد الذي بات يستقبل عشرات السفن التجارية القادمة من والى الهند وسواحل افريقيا الشرقية وغيرها.

كما إن الانكليز أفادوا من وجود عدد من المنشآت العثمانية جنوبي نهر العشار وبالذات في منطقة (المناوي باشا) والتي ضمت عدداً من الدوائر الخدمية التي كانت سابقا في خدمة الوجود العثماني إضافة إلى المقابر المخصصة لقتلاهم ضباطاً وجنوداً.

دوائر الحجر الصحي

وكان من حسن حظ البريطانيين أن الوالي العثماني المتنور مدحت باشا سعى إلى تأسيس بلدية البصرة عام ١٨٦٩ حيث أصبحت دائرة صحة البصرة في عهد الاحتلال البريطاني وبداية عهد الانتداب تابعة إلى البلدية التي كانت تابعة بدورها إلى دائرة الحاكم العسكري.

لقد تمثلت مهام بلدية البصرة عبر إشرافها المباشر وغير المباشر على المؤسسات الصحية كالمستشفيات والمستوصفات ودوائر الحجر الصحي. ولقد اهتمت السلطات البريطانية خلال فترة الاحتلال بأمر الحجر الصحي نظراً لان غالبية جنودها كانوا من المرتزقة الهنود والبانيان والكركة اضافة الى أعداد موسمية كبيرة من الحجاج وزوار المراقد المقدسة.

في عام ١٩٢٤ صدر قانون نقل الجنائز مترافقا مع إنشاء مستشفى مشترك للميناء وسكك الحديد في المعقل. والى جانبه أنشئت محطة للحجر الصحي سنة ١٩٢٨. وقد أدى ذلك الإجراء إلى تحسن وسائل الحجر الصحي تحسناً ملحوظاً. وكان يجري الكشف على كافة البواخر التجارية عند وصولها ومغادرتها وعلى السفن النهرية التي كانت تسافر بين بغداد والبصرة وتمنحها الاجراءات الصحية وجوازات السفر.

وفي سنة ١٩٣١، أي في عهد الملك فيصل الأول أصدرت مصلحة الصحة العراقية تعليمات عرفت بـ (بيان الحج إلى مكة المكرمة) تضمنت إجراءات الحجر الصحي التي تفرض على الحجاج العراقيين وغير العراقيين ومنها عدم السماح للحجاج بمغادرة الحدود إلا بعد انقضاء سبعة أيام على مغادرة الحجاز حيث يتم

فحصهم في اثناء وجودهم في الرحبة ولا يسمح بمغادرتهم إلا بعد ظهور نتائج الفحص. وعند ثبوت أية إصابة بالإمراض ينتقل لمصاب إلى المستشفى للمعالجة والعزل.

أمراض وأوبئة

لقد تنوعت مصادر الأمراض التي مرت على البصرة، وعموماً العراق، حسب مصادرها فهناك الأمراض المتوطنة وهي التي تتولد في مراكز محلية محدودة كالملاريا. والأمراض الوافدة وهي الأمراض التي تدخل البلد مع الداخلين في المناطق الموبوءة كالكوليرا والطاعون التي كانت تأتي من الهند والصين وإيران كمحصلة للحراك التجاري والأنشطة ذات الطابع الديني. أما الأمراض الانتقالية فهي الأمراض التي تصيب الحيوانات وتنتقل منها للإنسان كالسحايا والحمى القرمزية وداء الكلب والأمراض الوبائية Epidemic وهي أمراض سريعة الانتشار وتكون على شكل موجات وتنقسم إلى ثلاث مجموعات أخطرها مجموعة الطاعون والكوليرا والجدري والحمى الصفراء.

لقد اجتاح الطاعون البصرة عدة مرات في العهد العثماني حتى أواخر القرن التاسع عشر.لكن عمليات التطعيم ضد المرض ساعدت في القضاء على هذا الوباء حيث بلغ عدد الملقحين للفترة بين ١٩١٩– ١٩٢٥ مايعادل ٤٤٧٥٢ نسمة في البصرة لوحدها. أما الكوليرا فقد ظهرت للمرة الأولى في الهند سنة ١٨١٧ حيث شملت القارة الهندية بأكملها ودخلت منطقة الخليج العربي سنة ١٨٢١ عندما هاجمت عمان والبحرين والساحل الشرقي للخليج العربي ووصلت للبصرة ثلاث مرات خلال الفترات ١٩٢٣-١٩٢٧- ١٩٣١. ففي المرة الأولى انتقل الوباء من عبادان مع العمال الإيرانيين الذين عملوا في مراسي البصرة وعنابرها وجاءت الموجة الثانية في عبادان أيضا، أما الموجة الثالثة فقد انتقلت بواسطة السفن التجارية

إلى موانئ الخليج ومن ضمنها البصرة في سنة ١٩٣١. يتضح من ذلك أن سنة ١٩٢٧ كانت اقل عددا في الإصابات والوفيات وذلك يرجع إلى السرعة في ممارسة الإجراءات الصحية اللازمة لمواجهة الوباء في تلك السنة.

تاريخ البصرة الصحي

الصورة ترجع لعام ١٩١٧ وتمثل مجلس صحة بلدية البصرة قبل انفصال الدائرتين .

الفصل الثامن

البنك العثماني في البصرة.. كيف بدأ وكيف انتهى؟

من بين عدد من الصور التي أثارت انتباهه، أراني الزميل الكاتب ياسر جاسم قاسم واحدة من الصور التي تمثل مبنى بمدخل شارع الوطني تعلوه لافتة مكتوب عليها (البنك العثماني Ottoman Bank وسمي ايضا البانق العثماني)، طارحا سؤالا لم يخل من انتباهة ذكية جاء في شقين: لماذا البنك العثماني ولماذا لا يتوافق مبنى البنك وشكل طرازه مع التسمية؟

هذه المفارقة التي حملها استغراب الكاتب الصديق تركتني في حيرة من امري، ما حدا بي لمراجعة اكثر من مصدر مع تنقيب دقيق وتأمل استغرقاني جهدا ووقتا لتفكيك هذا (اللغز) التاريخي المرتبط بمدينتنا. لقد انتهى الحكم العثماني مع انقلاب الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨. ومن بعد هذا التاريخ تهاوت الامبراطورية العثمانية عمودا تلو عمود وسقفا بعد سقف. كيف اذن يمكن لبنك ذي مبنى يغلب على واجهته العمرانية انه ينتمي للفترة الملكية، وفي التسعينات من القرن المنصرم أصبح مقرا لبنك الرافدين فرع ٩٦ قبل انتقال الأخير الى الركن المقابل لأسد بابل، ان يسمى البنك العثماني في حين ان تلك الدولة قد دالت منذ ما يقارب القرن؟!

غلطة الشاطر!

ومن اجل اضاءة هذا (اللغز) لا بد من العودة لتاريخ الوكالات التجارية والشركات والمصارف الأجنبية. فبادئ ذي بدء عقدت الدولة العثمانية سلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات ومنحت العديد من الامتيازات التجارية للدول الأوروبية

في عنفوان مجدها، من اجل تنشيط الحركة التجارية. الا ان تلك الاتفاقيات والامتيازات أصبحت في فترة ضعف الدولة وإبان التطور الصناعي والرأسمالي وبالا عليها وصارت سلاحا بيد تلك الدول التي اخذت تتدخل في شؤونها من اجل ايجاد موطئ قدم لها. بريطانيا على سبيل المثال وبعد جهود مضنية دامت اكثر من قرن تمكنت من الحصول على بعض الامتيازات عن طريق عقدها لمجموعة من الاتفاقيات مع الجانب العثماني. وما ان قدم عام ١٨٣٤ حتى جعلت الباب العالي يصدر فرمانا لصالح يتعلق بحماية السفن التجارية في شط الفرات وتسهيل الملاحة في نهر الفرات.

البانق العثماني في البصرة

كانت واحدة من التكتيكات التي استخدمتها السياسة البريطانية السعي لاستثمار الاموال في الدولة البريطانية، وقد رافق تلك الحالة البدء بتنشيط وتنمية الحركة التجارية والنشاط المصرفي في عموم اراضي الدولة العثمانية. وكان افتتاح البنك الامبراطوري العثماني او البانق العثماني سنة ١٨٩٣ في بغداد مع فتح فرعين له في البصرة والموصل في عام ١٨٩٤ وبرأس مال قدره نصف مليون جنيه استرليني محاولة لربط الاقتصاد العثماني والعراقي بشكل خاص ببريطانيا. كما جرى وعلى المنوال نفسه افتتاح البنك الامبراطوري الفارسي في اكثر من مدينة عراقية بعد ان برزت الحاجة الى وجود نظام يقوم بحماية المصالح البريطانية.ففي منتصف شباط من عام ١٩١٧ دعى البريطانيون الى اجتماع حضرته ادارات تلك المصارف. يقول احد الساسة الانكليز في هذا الصدد: " كان مصدر تمويلنا بالقرانات الفارسية في ذلك الوقت يتم عن طريق البنك الفارسي الامبراطوري الذي احتكر الأعمال البنكية منذ اغلاق فروع البنك العثماني اثر انهيار الامبراطورية العثمانية ".

التجار اليهود

كان معظم تجار بغداد، في نهايات القرن التاسع عشر من الشباب اليهود بسبب اتقانهم لأكثر من لغة وبراعتهم في الاعمال الحسابية. فعلى سبيل المثال عائلة ساسون وتعد من ابرز العائلات اليهودية واشهرها في عالمي المال والتجارة في العراق وخارجه. ومن الاسر اليهودية حزقيال بن علي بن قباعي وعائلة سياك وسمخ وعزرا ويهودا التي استقرت في بومبي وكلكتا الهنديتين اضافة الى اسرة صفرا التي انطلقت تجاريا من حلب بسوريا. كما اشتهرت عائلة زلخا التي انشأت مشاريع تجارية في اوروبا والولايات المتحدة وبعض البلدان الاسيوية، وكذلك آل بشيوتو وعطية الاسبانيتان اصلا وكذلك عائلة الباز. كما لا ننسى دور حسقيل ساسون أول وزير للمالية بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة ممثلة بالملك فيصل الاول في ١٩٢١. وهو اول مؤسس للنظام المالي في الدولة العراقية وواضع واحدة من ادق الخطط لاصدار عملة عراقية وطنية.

من وقائع ما سبق نستدل على الحقائق التالية:

الحقيقة الاولى ان النفوذ الكولونيالي البريطاني، لا سيما على الصعيد التجاري، في العراق وعموم منطقة الخليج لم يحقق اهدافه دفعة واحدة بسبب التواجد الاستعماري العثماني لدولة فتية احتلت الوطن العربي لأربعة قرون متتالية مما اضطر الجانب البريطاني الى الاعتماد على الشركات والوكالات البريطانية والمحلية وبشكل غير مباشر؛ الى ان دخلت الدولة العثمانية في فترة الرجل المريض ما اتاح للقوى الكبرى التوغل بأسماء شتى فالبنك العثماني اسس برؤوس اموال بريطانية ويهودية. والحقيقة الثانية من سمات ذلك الصراع استخدام مبدأ الازاحة عن طريق شتى الوسائل الملتوية والقانونية فقد أزاح الهولنديون النفوذ البرتغالي وجاء النفوذ البريطاني ليزيح القوتين.كان وما زال الصراع معلما من معالم الأنشطة التجارية

والسياسية.

باختصار شديد البنك العثماني في تمويله وميزانيته ما هو الا مؤسسة مالية بريطانية استمرت بالعمل لغاية ثورة الرابع عشر من تموز حين أطيح بالحكم الملكي وجرى تأميم معظم المؤسسات المرتبطة بالخارج عدا القلة كمؤسسة توماس كوك المالية والبنك البريطاني للشرق الاوسط والذي يقع مقابل البانق العثماني.

وقد صدق من قال: إذا عرف السبب بطل العجب !

مبنى المصرف العثماني بمدخل شارع الوطني

الفصل التاسع

سينمات البصرة.. من الفضة الى الرماد !

عشرون ونيف دارا للسينما قدمت أجمل العروض ابان سنوات الأوج: الثلاثينيات،الاربعينيات، الخمسينيات، الستينيات حتى منتصف السبعينيات حين بدأ القوس بالانحدار فراحت دور السينما تتهاوى دارا اثر دار وتتفطر شاشة تلو أخرى.

الوقت: قبل الساعة الرابعة عصرا.. سماعتا الشاشة تصدحان باغنية لأم كلثوم او محمد عبد الوهاب. تنطفئ اضوية الصالة فتغرق لحظات في ظلام دامس مشحون بصفير وزعيق رواد الموقع الشعبي القريب من الشاشة. وفي لحظة مسرحية تعود الاضوية للسطوع ليبزغ (تومان) ابرع من يعزف (الفيفرة) او الناي بأنفه.

هو ملك الصالة الآن. وما ان يقدم وصلته الموسيقية الشجية متلويا بأناقة حتى ينسحب متواريا في غمرة ظلام جديد ينقذف فيه الى الشاشة الفضية عالم آخر سحري ومذهل. ربع ساعة من المقدمات الدعائية للأفلام التي ستعرض في قادم الأيام. ثم تحل فترة (الفرصة) يليها عرض الفيلم المعروض، فيجد المتفرج نفسه برفقة السندباد على صهوة طائر الرخ وهما يهربان من ملاحقة السايكلوب العملاق الوحيد العين والتي فقدها للتو بعصا طرفها مجبول من نار دسها السندباد في عينه بعد ان أغراه باحتساء نبيذ العنب الذي داسته ارجل الأخير وخمرته ليصبح سببا في هياج الوحش وخلاص السندباد.

عوالم سحرية تجعل من دار السينما (صندوق دنيا) آخر. وهكذا وفيما كانت

الحياة اليومية تسير ببطء في مدينة ريفية صحراوية الأصول في آن معا. كانت حياة اخرىٰ او اشكال متعددة من الحياة تدور فضية، سوداء أو ملونة علىٰ شاشة داخل صندوق ترتفع أضلعه كلما تقدمنا باتجاه الشاشة وكأني بالدنيا قد أولجت في قلب كرة زجاجية يقلّبها مارد من الجن: قصص وحكايات، قبل وبوكسات،دموع وضحكات، حروب، العاب نارية مطاردات، رعاة بقر وهنود حمر، حكايات عشق رومانسية وأخرىٰ تراجيدية.

كان المشهد الذي يعرض بوصة او بضع بوصات من فخذ مارلين مونرو او صدر كلوديا كاردينالي يكفي بوصم الفيلم بعار (الجرأة) ولكن هذا مايريده الجمهور لاسيما جمهور الفتيان الشبق المحروم.أليس الأمر كذلك؟ كان ذلك كافيا لجعل تومان يرفع عقيرته ناعتا الفيلم بالإباحية ويكفي لاطلاق عاصفة مبعثها جمهور (الترسو) أو جمهور (ابو أربعين) من التأوهات والصفير والشتائم لعامل مقصورة العرض لأنه في لحظة ايروتيكية حرجة (عمل) علىٰ اعتام الفيلم وحسبه بعضهم عجّان المشهد وخبازه وبائعه !

سينمات وعروض

سينما (رويال) وهي من اقدم دور السينما في البصرة وتقع في قلب سوق العشار بالقرب من سوق العطارين وقدمت عروضا صامتة كما يبدو في الثلاثينيات من القرن الماضي.

الوطني الصيفي من الأفلام التي عرضت على شاشتها الصيفية:

عرض فيلم (ام الهند) علىٰ شاشتي الوطني الصيفي والشتوي عام ١٩٥٩ وحظي بإقبال هائل من قبل الجمهور البصري الذي كان جل قوامه من العائلات. كما عرض فيلم (نهر بلا عودة) بطولة الممثلة الشهيرة مارلين مونرو (الفيلم عرض مؤخرا علىٰ شاشة قناة الديار الفضائية) وهو من افلام رعاة البقر.وفيلم (نزهة)

بطولة الممثل الامريكي وليام هولدن. وكذلك فيلم (النافذة الخلفية The Rear Window) وهو من افلام التشويق التي اختص بإخراجها المخرج المتميز(الفريد هتشكوك) وفيلم (القطار الأخير) بطولة (كيرك دوغلاس) و(أنتوني كوين) اضافة الى فيلم (الحرب والسلام) بطولة اودري هيبورن وآخرون. وقد شهدت الداران – الوطني الشتوي والصيفي– عروضا متزامنة لفيلم واحد. ولعل ذلك راجع الى ان مالك الدارين هو مجيد سلومي.

عوالم سحرية تجعل من دار السينما (صندوق دنيا) آخر. وهكذا وفيما كانت الحياة اليومية تسير ببطء في مدينة ريفية صحراوية الأصول في آن معا. كانت حياة اخرى او اشكال متعددة من الحياة تدور فضية، سوداء أو ملونة على شاشة داخل صندوق ترتفع أضلعه كلما تقدمنا باتجاه الشاشة وكأني بالدنيا قد أولجت في قلب كرة زجاجية يقلّبها مارد من الجن: قصص وحكايات، قبل وبوكسات،دموع وضحكات، حروب، العاب نارية مطاردات، رعاة بقر وهنود حمر، حكايات عشق رومانسية وأخرى تراجيدية.

كان المشهد الذي يعرض بوصة او بضع بوصات من فخذ مارلين مونرو او صدر كلوديا كاردينالي يكفي بوصم الفيلم بعار (الجرأة) ولكن هذا مايريده الجمهور لاسيما جمهور الفتيان الشبق المحروم.

أليس الأمر كذلك؟ كان ذلك كافيا لجعل تومان يرفع عقيرته ناعتا الفيلم بالإباحية ويكفي لاطلاق عاصفة مبعثها جمهور (الترسو) أو جمهور (ابو أربعين) من التأوهات والصفير والشتائم لعامل مقصورة العرض لأنه في لحظة ايروتيكية حرجة (عمل) على اعتام الفيلم وحسبه بعضهم عجّان المشهد وخبازه وبائعه !

اما سينما (الوطني الشتوي) فقد قدمت هي الاخرى مجموعة من الافلام الأجنبية النخبة (لمن تقرع الاجراس) رواية همنجواي والفيلم من بطولة الممثل

العملاق (كاري كوبر)، كما عرض فيلم (سقوط الامبراطورية الرومانية) وهو من الافلام التاريخية، وفيلم (الفخ) من بطولة الممثل البريطاني (اوليفر ريد) مع الممثلة البارعة (ريتا توشينغهام)

وعموما اختصت كلا الدارين، ما عدا بعض الاستثناءات في تقديم الافلام الاجنبية لا العربية مثل فيلم (فاني) الذي قام ببطولته الممثل الفرنسي الشهير (موريس شيفالييه) وقد عرضت دار سينما الوطني الشتوي أيضا فيلم (المحاكمة) عن رواية لكافكا وكان ذلك في اواسط الستينيات إضافة إلى عدد كبير من الأفلام الرائعة التي خلبت لب الجمهور لزمن طويل في وقت كان التلفزيون يتسلل على استحياء الى البيوت والمقاهي لتحل الشاشة الصغيرة بديلا عن الشاشة الفضية الكبيرة.

افلام العيد

اختصت سينما الرشيد بعرض افلام منوعة من العربية الى الاجنبية مثلما اختصت بتقديم افلام العيد المقصقصة مثل:

(القرصان الاحمر) بطولة بيرت لانكستر وافلام (طرزان) و لوريل وهاردي وشارلي شابلن وبود ابوت ولو كاستيللو وكانوا نجوم الفيلم الكوميدي، وقتذاك. لكن سينما الرشيد قدمت (خلطة) من الافلام الايطالية بدء بافلام (هرقل الجبار) بطولة ستيف ريفز وجوليانوجيما، مثلما قدمت افلاما مصرية مثل (مراتي مدير عام) و(البوسطجي) وسواهما من أفلام عربية مصرية مثلما عرضت افلاما من دول اخرى من شتى انحاء العالم من بينها العراق مثل فيلم (الحارس) العراقي.

وعلى نفس الغرار نوعت سينما (اطلس) عروضها فقدمت افلاما عراقية مثل (النهر) عام ١٩٧٨ وهندية وأجنبية، غير انها لم ترقَ في نوعية عروضها الى مستويات الافلام التي اختصت كل من سينمات (الوطني الصيفي والشتوي والحمراء

الجديدة الشتوية) بتقديمها. الفيلم النخبة الوحيد، ربما، الذي شاهدته على شاشة (أطلس) كان عنوانه (ايفا) من بطولة الممثلة الفرنسية القديرة (جان مورو) وقد تمحور موضوعه حول أغنية عن عويل شجرة الصفصاف الذي كان بمثابة المعادل الموضوعي لشجن امرأة مقهورة.

الحمراء الجديدة الشتوي

والحقيقة انني شاهدت اكبر عدد من الافلام العالمية الرفيعة المستوى على شاشة سينما الحمراء الجديدة الشتوي، كما سبق وأن نوهت قبل قليل. وها هي مجموعة من الافلام التي شاهدتها على شاشة تلك الدار التي هدمت في زمن ما إبان السبعينيات او الثمانينيات من القرن الماضي، مع الأسف: (الفايكنغ) كيرك دوغلاس وتوني كيرتس، (آخر شعاع في العالم) بطولة (يول برينر)،(الهمس الصاخب) شيرلي ماكلين وجان مورو، (انتظر حتى الظلام) بطولة الممثلة الامريكية (اودري هيبورن)..

(جامع الفراشات) بطولة تيرنس ستامب(الشقة) جاك ليمون، (الرولزرويس الصفراء) ثلاث قصص الان ديلون وآخرون(مدافع نافارون) عن العمليات الحربية ايام الحرب العالمية الثانية وتدور احداثه في اليونان.

وتطول القائمة..

اما سينما الحمراء القديمة الشتوي (الكرنك فيما بعد) فعرضت افلاما منوعة متراوحة في الجودة والاداء، مثل فيلم (زوربا) بطولة انطوني كوين كما شاهدت افلاما في نفس الدار بعد ان تحول اسمها الى (الكرنك) مثل النسخة الروسية من رواية تولستوي (الحرب والسلام) وهو انجاز ضخم من انجازات السينما السوفييتية من جزئين ونظرا لطول الفيلم، وتوزعه على جزئين شاهدت جزء واحدا فقط. كما حضرت فيلم (الاختيار) بطولة عزت العلايلي وسعاد حسني اواسط الستينيات.

اما على شاشة سينما (شط العرب الصيفي) شاهدت فيلم (روبنسون كروزو) وكذلك فيلم (سعيد افندي) الغني عن التعريف. ومن دور سينما البصرة (الفيصلية) التي تقع بالقرب من ملعب الجمهورية. وكذلك سينما (برودواي) في الزقاق الذي يقع خلف جامع البصرة الكبير والذي تحول اسمها الى سينما(الرافدين).

كما ان من دور السينما كل من سينما (البصرة الصيفي)، في موقع عمارة جاسب الحربي حاليا تقابلها - عند الخاصرة - وسينما (النصر).

وفي المعقل: سينما (بورت كلوب) وسينما (الميناء الصيفي) و(الميناء الشتوي) وفي مبنى المحافظة القديم سينما (السياب) التابعة للمؤسسة العامة للسينما والمسرح. وكذلك سينما (برودواي) في الزقاق الذي يقع خلف جامع البصرة الكبير والذي تحول اسمها الى سينما(الرافدين). كما ان من دور السينما كل من سينما (البصرة الصيفي)، في موقع عمارة جاسب الحربي حاليا تقابلها - عند الخاصرة - وسينما (النصر). وفي المعقل: سينما (بورت كلوب) وسينما (الميناء الصيفي) و(الميناء الشتوي) وفي مبنى المحافظة القديم سينما (السياب) التابعة للمؤسسة العامة للسينما والمسرح.

من التألق الى الاندثار

مع غزو التلفزيون وانهماك البلد بحروب مدمرة أصابت روحية المجتمع البصري في نحره، أخذت دور السينما بالاحتضار واحدة تلو الأخرى.

وقبل مدة مررت بالشارع الذي تقع فيه سينما الرشيد وأطلس فلم أجد المبنيين إنما أبصرت مكانهما عمارتين بطوابق متعددة.

وهو المصير نفسه الذي واجهته سينما (الوطني الشتوي) حيث شرع بهدمها وهدم المحلات المحيطة بها توطئة لبناء عمارة، لا ريب. كما تعرضت سينما الوطني

الصيفي لمصير مماثل.أما سينما الكرنك الواقعة في ساحة ام البروم فهدمت ولا زالت انقاض متراكمة بعد تغيير النظام كانت هنالك محاولة يتيمة لم يكتب لها النجاح تمثلت في السعي لإعادة افتتاح سينما (اطلس) ولكن هيهات اذ لا يصلح العطار ما افسد الدهر !

ويذلك انطفأ نصف قرن من الأضواء و الأمجاد الفضية. ان دور السينما الوحيدة المتبقية هي الآن مشيدة في رؤوس المخضرمين من أبناء المدينة يقتاتون عليها كذكريات عبرت افق أخيلتهم في أزمنة راحت وولت.

وقد صدق من قال:

ان الذكريات صدئ السنين الحاكي !

اغرب ثلاثة عروض سينمائية في بصرة الستينات

في حقبة الستينات، ولا سيما في بداياتها، شهدت سينمات البصرة عددا من اغرب العروض السينمائية، اكتفي بايراد ثلاثة منها بصفتي متفرجا:

الحكاية الاولى

تمثلت في وجود رغبة مشتركة لديّ وكذلك لدئ ابن محلتي وزميلي في جميع المراحل الدراسية، الا وهو المحامي سليم عناد ريحان. ففي اليوم الاخير من ايام امتحان البكالوريا الذي جرئ في احد صفوف متوسطة المربد، وبعد انصرافنا فكرنا، نحن الاثنين في تناول مثلجات (الدوندرمة) بمحل جبار بائع الشربت ومن ثم تناول سندويجتين من السمبوسة في المطعم الهندي المقابل لخاصرة مصرف الرافدين وبالضبط عند ركن سوق حنا الشيخ الشمالي. ويبدو ان الاخ سليم كان يعشق الأكل الهندي الذي لم اكن احتمله بسبب لهب الفلفل المنبعث من قلب تلك (اللفة) الحانقة بل التي يتطاير الشرر منها.وحين سمع صديقي سليم شهقتي المتألمة

من تلك البهارات اللاذعة، اقترح عليّ اختيار اكلة اخرى ففعلت اذ اوصيت على(الباكورة) التي لم تكن اقل زمجرة من لفة السمبوسة ! وما ان تقضت فترة الزوال حتى هرعنا الى دار سينما الرشيد القريبة دون ان نلقي نظرة ولو واحدة الى ما نشيت الفيلم. لكنني ومع انطفاء اضواء الصالة، اسرعت الى الحمام مارا بصندوق العرض الذي لقيت فيه صورا للفيلم الذي سيعرض واذا بي اجد صورا لنجاة الصغيرة وهي تغني، لكن الغريب ان مانشيت الفيلم الذي سيعرض لم يكن موجودا. ومع رنين جرس بدء العرض دخلت الصالة مسرعا، وحين سألت صديقي عن الافلام التي عرضت في فترة عرض المقدمات اجاب بأنهم عرضوا افلاما دعائية عن صابون امواج ولوكس للتواليت. اطفأت اضواء الصالة ومن ثم بدأ الفيلم حيث تصدرت المطربة نجاة الصغيرة المشهد في اغنية (ايظن) التي استغرق عرضها عشرين دقيقة.. فقط لا غير ومن ثم انيرت الصالة من جديد ! اذ ذاك لمحنا تومان الذي اوضح مجيبا عن استفسارنا قائلا: عنوان الفيلم.. اغنية (ايظن) فشهقت مدهوشا وانبريت متسائلا:

- بس؟ !

- بس ! ثم ابتعد تومان وهو يملأ الصالة بالعزف على مزماره !

خلاصة الحكاية اننا شاهدنا اغنية استغرقت ثلث ساعة فقط لاغير!

الحكاية الثانية

تمثلت في الاستقبال غير الطبيعي لفيلم (مرحبا ايها الحب) على شاشة سينما الحمراء الجديدة الشتوي وكان فيلما لبنانيا من بطولة نجاح سلام، سامية جمال، عبد السلام النابلسي، جاكلين، يوسف فخر الدين وفيلمون وهبه ومن اخراج محمد سلمان. في بداية الامر لم نفهم سر الاقبال الجماهيري على ذلك الفيلم الاستعراضي الى أن علمنا فيما بعد ان احد اهم الأسباب واكبرها غياب الفيلم المصري بحكم

ضغط الواقع السياسي المتوتر بين حكم جمال عبد الناصر وفترة حكم الزعيم الراحل عبد الكريم قاسم، ذلك التوتر الذي تسبب بحظر عرض الفيلم العربي المصري، لكن لم يكن السبب الوحيد في ذلك الاقبال غير الطبيعي على الفيلم من قبل جمهور السينما الذي كان جلّه من الشباب الشرقيين المولودين في مجتمع شرقي متزمت وكذلك يكمن السر في الرقصات الاستعراضية الايروتيكية لكل من لهلوبة الرقص الشرقي سامية جمال ومارلين مونرو لبنان الراقصة جاكلين.وعلى كل حال استمر عرض الفيلم في دور السينما في البصرة وعموم القطر مالا يقل عن ستة اشهر متواصلة.اضافة الى ان عددا ممن ادوا ادوار البطولة قدموا الى البصرة بشكل شخصي، دون ان نغمط المطربة نجاح سلام حقها في اداء عدد من الاغنيات بصوتها الرخيم مثل اغنية (غزالي) وغيرها.

الهندي الاحمر

الحكاية الثالثة التي لم اجد لها تفسيرا كان بطلها الممثل الامريكي جيف تشاندلر في فيلمه الحربي الذي تجري احداثه في عرض المحيط الهادي. وقد عرض الفيلم في سينما (الوطني الشتوي) توجدت كتلة هائلة من اجساد الراغبين باقتطاع التذكرة في الصالة الخارجية التي كانت غاصة بالناس.وبعد صراع كدت خلاله ان القى حتفي مختنقا تحت ابدان جمهور (الترسو) تمكنت من الفوز بالتذكرة حيث اسرعت الى صالة العرض الجانبية. وهنا كانت المفاجأة، فقد كان الفيلم ابرد في احداثه من برد القطب الشمالي. اذن لماذا ذلك الزحام الذي كاد ان يهصر جسمي القصبي الصغير؟ ! وعرفت سر ذلك الزحام بعد مرور ما لايقل عن ثلاثين عاما حيث علمت بأن الاقبال لم يكن على الفيلم نفسه بل لأن من ادى دور البطولة كان الممثل الامريكي (جيف شاندلر) كما علمت بأن تايتل الفيلم كان يدور في اجواء الحرب العالمية الثانية وحمل عنوان (

Away All Boats) او (كـل القـوارب الى البحـر) وكـان فـيلما امريكيـاً دعائيـا بامتياز. ولكنني اكتشفت ايضا ان سبب انجذاب فتيان مدينتنا البصـــرة حصـــل لأن (جيف تشاندلر) هو من ادىٰ دور البطولة بعد ان اقترن في مخيلتهم بدوره الصاعق في فيلم الهنود الحمر (تازا بن كوتشيز) !

١ ـ سينما النصر في محلة بريهة

٢ ـ تومان محاطا بمحبي مزماره السحري

٣ ـ مانشيت فيلم (مرحبا ايها الحب) اللبناني

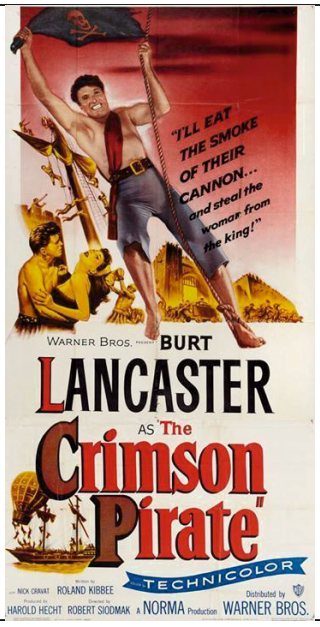

٤ ـ مانشيت فيلم (القرصان الاحمر) الذي كان يعرض في كل عيد

٥ ــ واجهة سينما الوطني الشتوي في اواخر ايامها

الفصل العاشر

سوق الهنود او المغايز..من النشأة الى الازدهار

كانت منطقة العشار في اوج الاحتلال العثماني وبالذات في القرنين السادس والسابع عشر منطقة غابات نخيل وأعشاب حلفاء كانت تغطي مساحات واسعة من المناطق المجاورة. مناوي باشا كانت، على سبيل المثال تمتد بنخيلها حتى جنوب نهر العشار، الا من بضعة عمائر استخدمها العثمانيون كمخازن للسلاح وثكنات ومقابر لعساكر الاحتلال.

والكثافة الزراعية نفسها كانت ملموسة شمال نهر الخندق عدا بعض المؤسسات ذات الطابع البحري او العسكري مثل مبنى القشلة او الثكنة العسكرية (سوق الخضارة حاليا) والتي كانت تعد من كبريات القواعد البحرية وتلي قناة السويس في الأهمية.

كان مركز المدينة، وقتذاك، ولغاية مطالع القرن العشرين، بناء على ما ذكر اعلاه من الأسباب هو البصرة او ما يطلق عليه حاليا بالبصرة القديمة.

التساؤل الذي يطرح نفسه يبدأ بأداة الاستفهام التي تبحث في الأسباب.. لماذا ازدهرت البصرة القديمة وعدت مركزا تجاريا وإداريا للبصرة ـ المدينة؟ اعتقد ان السبب الرئيس يكمن بعلاقة الجزء الغربي من المدينة بالصحراء. ومعلوم انه كان للبصرة سور دائري وخمسة ابواب هي باب الرباط وباب بغداد شمالا وباب الزبير غربا وباب السراجي وباب المجموعة جنوبا. بينما شكّل شط العرب حدا طبيعيا امام غزو الفرس شرقا. ويبدو ان باب الزبير كان الأنشط بشريا وتجاريا فقد كان

يدخل عبره بدو الجزيرة والخليج وبدو قضاء الزبير حيث التمركز الأقدم لقوات الفتح الاسلامي المتزامنة مع تمصير المدينة سنة ١٤ هـ.ومعروف ان ابناء البادية اعتادوا القدوم للبصرة لأغراض تجارية في المقام الاول فقد كانوا يبيعون الانعام ومنتوجاتها من حليب ودهن (عدان) واقط لقاء ما تقدمه المدينة من خضار وتمور وبقول. ومعروف ان منطقة البصرة القديمة كانت الأقرب للزبير والمنتفق وبادية السماوة ما جعلها مركزا تجاريا اخذ، مع السنين بالازدهار.

صراعات استعمارية

مع تعاظم دور الاستعمار البرتغالي والهولندي والبريطاني فيما بعد تجلت حقيقة لم تنتبه لها الدولة العثمانية فقد كان همها الخراج والضرائب التي اعتاد الولاة العثمانيون ايصالها الى خزينة الباب العالي بينما كان الاستعمار الجديد ينظر الى اهمية البصرة الاستراتيجية كمعبر الى الهند وحتى ما وراء الهند. وضمن هذه المعطيات ازدهرت البصرة القديمة بدء بمنطقة (السيف التي تعني مخزن الغلال المقام بالقرب من ضفة النهر) ومنطقتي الباشا ونظران وجنوبا منطقة القطانة وشارع بشار، مما جعلها تحتشد بعشرات من بيوتات الشناشيل التي كان يمتلكها اثرياء المدينة تجارا ووجهاء اضافة الى افتتاح عدد من الوكالات والشركات التجارية مثل شركة (الهند الشرقية) بادارتها الهولندية في بداية الامر ومن ثم شركة الهند الشرقية الانكليزية التي دخلت مضمار التنافس التجاري بدعم من قوتها البحرية المتعاظمة الازدهار.في البصرة القديمة ازدهرت الكاتب التجارية والمقيميات والوكالات بشتى الادارات والمسميات، ناهيك عن ازدهار حركة النقل النهري عن طريق نهري العشار والخندق. اذن فالبصرة القديمة ازدهرت بحكم عوامل متعددة اولها قربها من تجار البادية وبعدها عن المطامع الفارسية التي حاصرت المدينة اكثر من مرة.

ازدهار العشار

كانت مدينة البصرة طيلة القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر تطل على نهر العشار فقط على بعد عدة اميال من شط العرب.

وعندما زار السائح آشر البصرة عام ١٨٦٥ وجدها بلدة صغيرة نصف خربة وينسب هذا السائح خرابها الى عدة أسباب منها الأوبئة الوافدة اضافة الى اهمال ولاتها. غير ان الانتقالة الكبرى التي اعانت على ازدهار منطقة العشار وسوق الهنود تعود الى ادراك الباب العالي العثماني بضراوة التنافس السياسي بين دول الاستعمار متمثلة بالنفوذ البريطاني المنافس في المقام الاول. والواقع ان ازدهار مدينة العشار اقترنت بالحركة الاصلاحية التي قاد لواءها الوالي التركي مدحت باشا

وبعد ذلك التاريخ صمد سوق الهنود اكثر من سبعين عاما متحديا العقبات والمحن والغوغاء والحرب فأصبح القنطرة الذهبية الى موانئ العالم البعيدة محققا نبوءة الرحالة غورينو: البصرة سوق من اعظم الاسواق في هذه البحار ".

باختصار شديد يمكن القول ان منطقة العشار، وتحديدا سوق الهنود شهدت ازدهارا على مرحلتين الاولى مع اصلاحات مدحت باشا وشعور الدولة العثمانية بالسباق المحموم من قبل الدول الاستعمارية على ايجاد مناطق نفوذ في العراق، بشكل عام وفي البصرة على وجه الخصوص. كانت فترة الازدهار الاولى بطيئة نسبيا بحكم هشاشة الحكم العثماني بدء بالعام ١٨٦٥. اما المرحلة الثانية التي كانت انفجارية فقد تزامنت مع الاحتلال البريطاني للعراق ١٩١٤ وتخلف اعداد كبيرة من القوات الهندية المساندة والذي تمثل في استقرار العديد من الجنود الهنود ما ادى الى تنشيط الحركة التجارية، ليس مع الهند وحسب بل مع شتى أرجاء العالم. اضافة الى الاستقرارالنسبي المتزامن مع مجيء الحكم الملكي وتشكيل الحكومات الوطنية المتعاقبة والتي سيقوم الواقع القبلي المحلي بوضع العصي في دواليبها في قادم

السنوات.

لوحات من البصرة

في كتابه (لوحات من البصرة.. عبير التوابل والموانئ البعيدة) يحدثنا الكاتب الموسوعي احسان وفيق السامرائي عن البداية التاريخية لسوق الهنود آثرنا اختيار بعض الوقفات كما يلي:

" تقول رواية المؤرخ قاسم رؤوف ان السنوات التي اعقبت احتلال العراق من قبل القوات البريطانية سنة ١٩١٤ قد خلفت لجنود المستعمرات البريطانية الذين شاركوا باحتلال البصرة حالات مرضية ونفسية بعد ان طالت غربتهم عن أهلهم وأوطانهم فاستسلموا لآمالهم وظلوا ينتظرون وينتظرون، وحين دب اليأس في نفوسهم اتجهوا لممارسة أعمالهم ولم تمض فترة قصيرة حتى انتشر باعة الكازو والمانجو والتنباك والسويكة والتوابل والبخور. وفي أزقة العشار والبجاري ظهرت اكشاك ومطاعم صغيرة راحت تطبخ البرياني والتندوري واسماك الرنجة المملحة والروبيان فامتلأ المكان برائحة الكاري والتوابل الحارة متحولا الى سوق اطلق عليه اهل البصرة اسم سوق الهنود " انتهت رواية المؤرخ قاسم رؤوف غيران احسان وفيق يورد رواية اخرى تتعلق بنشأة السوق تبناها كاظم جميل البياتي بتأييد من المؤرخ رجب بركات ذاكرا ان سوق الهنود كان موجودا قبل دخول الاحتلال البريطاني للبصرة وارتبط في الأصل بالحركة التجارية العريقة لمدينة العشار ولم تقترن بدايته مع مقدم جنود الاحتلال البريطاني. كما يقول الدكتور حسين محمد القهواتي في كتابه (دور البصرة التجاري في الخليج العربي):" فالبصرة على سبيل المثال استوردت عام ١٨٧٣ من ميناء ابوشهر بعض السلع التجارية لا من اجل الاستهلاك فحسب وإنما من اجل اعادة التصدير ايضا وشملت تلك البضائع السيوف والشموع والساعات وجوز الهند والقهوة والاقمشة القطنية والقطن الخام والشب والصمغ والكافور والكنين والتوابل والسكر المخروطي والسكر الناعم

والشاي والتبغ وغيرها وكانت الحركة التجارية في أوجّها على أيدي شـركات مثـل شـركة ميمني الهندية وشـركة البـواخر العربيـة المحـدودة وشـركة مـوير تويـدي وشـركة الحاج سلطان شوشتري وعشـرات من الشـركات والخطوط الملاحية ".

تنتشـر في السوق مجموعة انيقة من المحلات التجارية اشهرها محلات (مانشسـتر هاوس) ويعقوب شارو والبير اصفر وبشير عبودي وروبـين اليـاس وجمعـة الحـاج عريبي وصليوه سعيد وشاكر محمود السهيل وصاموئيل عنتر لبيع الاسـلحة وزكـي زيتو وحسقيل كباي وغيرهم.

كان العابر الى سوق الهنود يرى مجاميع كثيرة من النساء والرجال ويسمع اختلاط اللغات العربيـة والتركيـة والانكليزيـة والهنديـة والفارسـية بـين مختلـف الأديـان والطوائف اذ كانت السفن تفرغ يوميا مختلف البضائع من الاقمشة والمكائن والعاج والأخشـاب والملابـس والخـزف والعطـور والفواكـه والتحـف والحديـد والمـواد الانشائية والفرو والحرير.

وريث تاريخي

يعد سوق العطارين بمثابة الوريث التاريخي لسوق الهنود. فقـد كانـت البصـرة ولأمد قريب في طليعة الموانئ التي حظيت بموقع تجاري فريد جعل علماء الجغرافيـة يطلقون على الخليج تسمية (خليج البصـرة)، قبل ان تتناوشها الحروب والنزاعـات لتفقد تلك المكانة المتميزة التي اشتهرت بها بين الأمم. فقد وصفها احد المستشـرقين بكونها مدينة في سوق او سوقا في مدينة. وكان الـداخل الى سـوق الهنـود – عصـب العشارالاقتصادي – ينصت الى خليط من اللغات واللهجات من العربيـة والهنديـة والفارسـية والانكليزيـة. ولكـن مـع الايـام ومـع تبـدل الاحـوال السـياسـية والاقتصادية فقد السوق خصائصه التي ميزته فقد أصـبح سـوق الهنـود بـلا هنـود محتفظا بالتسمية وحسب.. وشيئا فشيئا وجد العطارون انفسهم في موقع آخـر بعيـد

عن موقعه السابق ويشكل امتدادا لسوق الهرج الشرقي.

اليوم فقد سوق الهنود معظم مواصفاته فلم يعد سوى سوق مسقف متكدس بالبضائع والبسطات التي شكلت معوقا وسطيا على امتداد السوق واختفت تلك الوجوه متشظية في بقاع الأرض او رقدت تحت التراب ليحل محلها باعة يفتقدون للحس التجاري (الكومبرادوري) الذي ميز البصرة كميناء تجاري عالمي كان في زمن ما متقدما على بقية موانئ المنطقة.

سوق الهنود

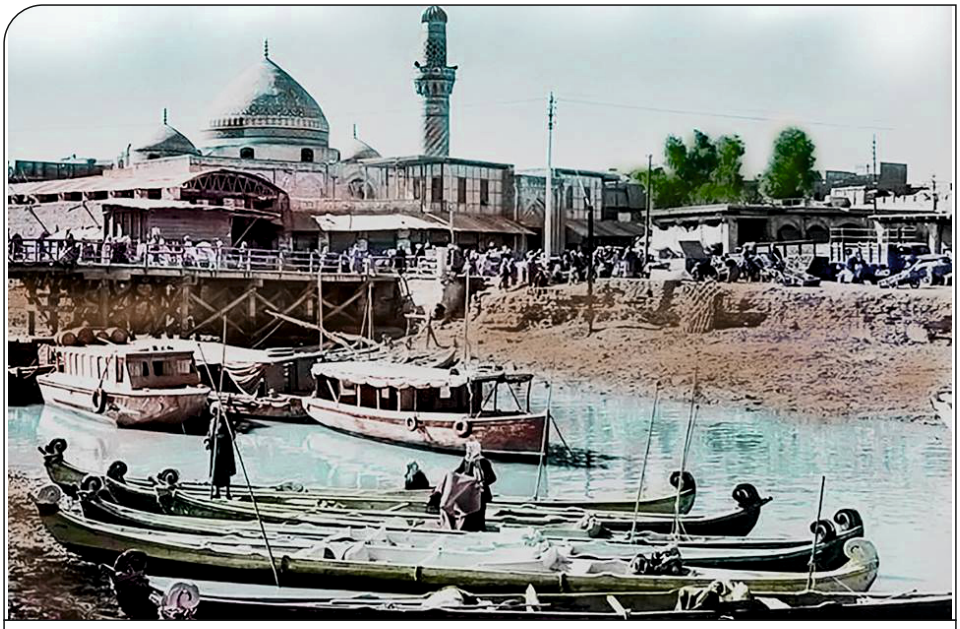

١ــ المدخل الشرقي لسوق المغايز عبر جسر المقام

٢ ــ نهر العشار .. الحد الجنوبي لسوق المغايز .. يمينا سوق (المسقف)

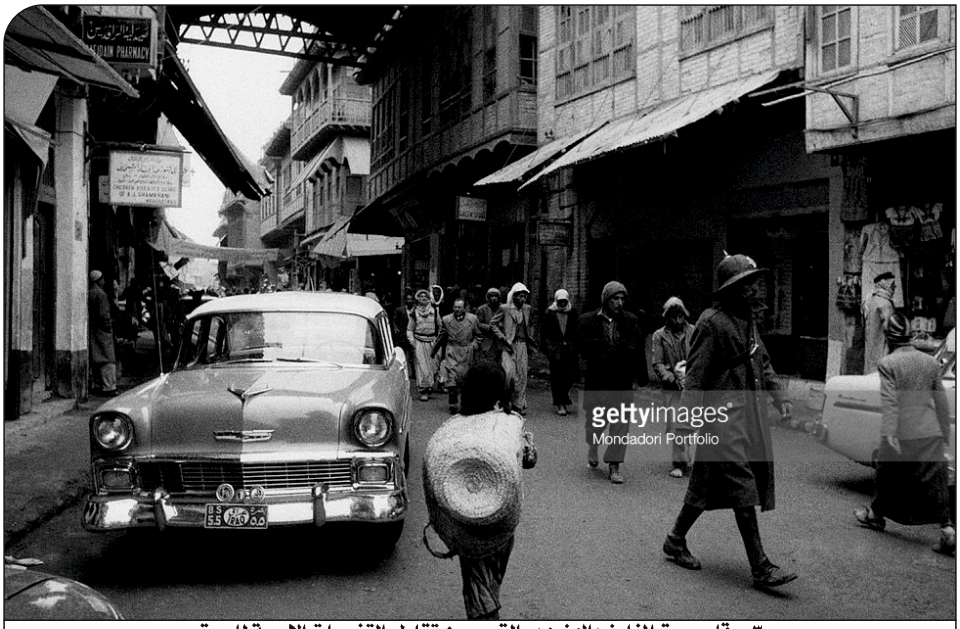

٣ ــ قلب سوق المغايز (الهنود) بالقرب من تقاطع التفرعات الاربعة للسوق
الصورة بعدسة المصور الايطالي ماريو دي بياسيه المعتمد لدى شركة موندادوري الايطالية والمعتمدة لدى شركة جتي ايميجيز العالمية .

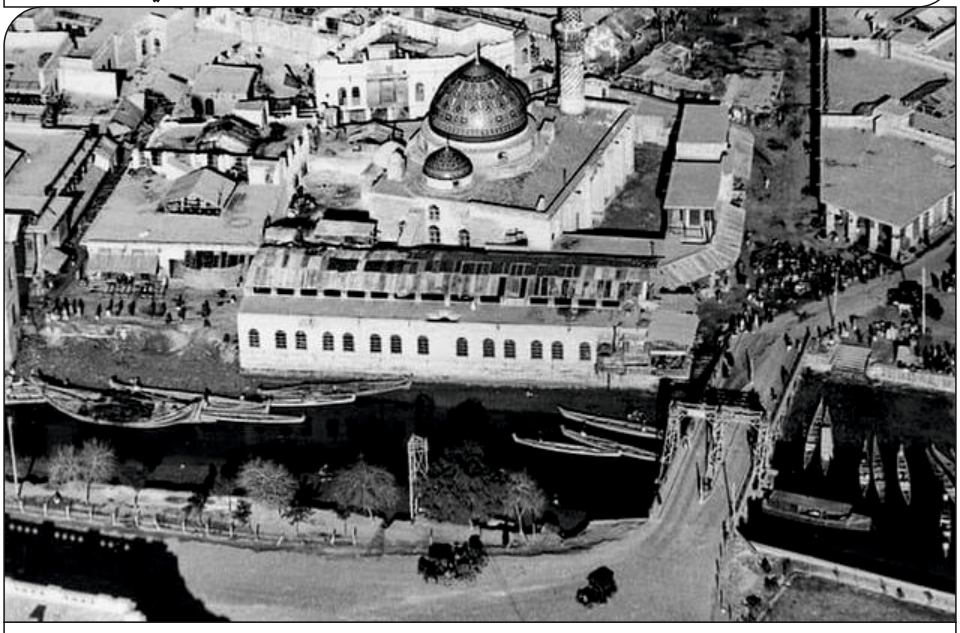

٤ ــ لقطة بانورامية من سطح البنك البريطاني للشرق الأوسط المزال حاليا والقريب جدا من اسد بابل .

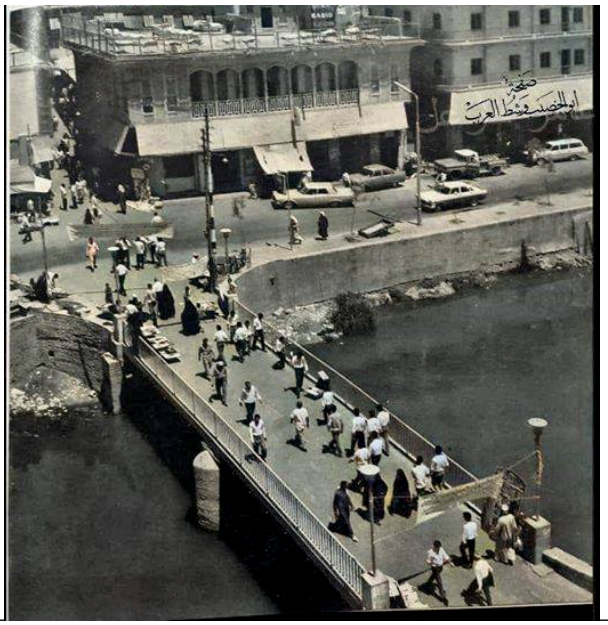

٥ـ مدخل سوق الهنود عند جسر المغايز

٦ ـ مشهد جانبي لسوق البهارات في العشار

القسـم الثاني

متـفرقات

١. فلكة المطافئ: صورة ترجع لأيام الخمسـينيات لدوار او فلكة السعدي نسبة لمستشفى السعدي القريب وتسمى ايضا بفلكة الزعيم حيث يتوسطها تمثال نصفي للزعيم عبد الكريم قاسم. المذهل في الصورة هو كثافة بساتين محلتي الساعي والتحسـينية والتي اعتادت بعـض العوائـل التنـزه فيهـا او القيـام بسفرات العطل الأسبوعية.كما يلاحظ مبنى المكتبة العامة، عبر النهر.

فلكة السعدي او ساحة عبد الكريم قاسم حاليا. مديرية مطـافئ البصـرة اعـلى اليسار ويبدو انها كانت تابعة لبلدية البصـرة. مشـهد الظـلال يـوحي بـأن الصـورة التقطت في اعالي الضحى.نهر العشـار في اعـلى الصـورة في رحلتـه باتجـاه البصـرة القديمة يبدو هادئا نظيف الضفاف. اما الجزء العلوي من الصـورة فطريـق عشـار ـ بصـرة المحفوف بغابة نخيل كانت تغطي ثلاثة ارباع محلـة السـاعي. لاحـظ غابـة النخيل الممتدة الى ما بعد موقع بلدية البصـرة الحالي. نخيل اكثر عـددا مـن البشـر. وكان البشـر ابناء المدينة يشاركون تمر البرحي في جودة طعمـه ورقـيّ نوعـه. انظـر المبنى اعلى الصورة الذي يضم مكتبة المدينة العامة ومبنى الادارة المحلية، والمبنيان ما زالا موجودين يصارعان الزمن من اجل البقاء. اليوم هـذا مـا تبقـى: برحـي اكثـر ندرة. حفنة قليلة من اردأ اصـناف التمـر. غـزو مـبرمج وغـير مـبرمج للاسـمنت والحديد وجبال من القمامة !

٢. قشلة العشار

قشلة العشار كانت مبنى حكومة الدولة العثمانية في ولاية البصرة في منطقة العشار ويوجد فيها مبنى ساعة القشلة، وتسمى السراي أي مقر الحكومة في البصرة وهي مقر والي البصرة العثماني، حيث ان مدينة البصرة دخلت في حكم الدولة العثمانية في عام ١٥٤٦م، وظلت حتى احتلتها القوات البريطانية في عام ١٩١٤م، أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي عهد الدولة العثمانية كانت قشلة البصرة تعتبر القاعدة البحرية الثانية بعد منطقة السويس في مصر التي استخدمت لمواجهة سفن المستعمرين في الخليج.

وكلمة القشلة هي كلمة من اللغة التركية تعني المكان الذي يمكث فيه الجنود بالشتاء، وهي قد تعني المشتى أي المكان الذي يقي الإنسان من تقلّبات الجوّ، ثم خصّصت لاقامة الجنود وقت السلم، أي ما معناه الثكنة العسكرية أو المعسكر كما يطلق عليه الآن. وهذه الثكنة أحتضنت في داخلها آنذاك الجنود والإداريين والمسؤولين عنهم ومخازنهم ومستودعاتهم، حيث كان المبنى عبارة عن دائرة مدنية وعسكرية في الدولة العثمانية.

كانت اعين البريطانيين (الوافدين الجدد) على منطقة الخليج وقتذاك منصبة على هذه الثكنة لأهميتها القصوى على الصعيدين العسكري والتجاري. يلاحظ العلم البريطاني على المبنى المقابل للقلعة ما عكس تعطش الانكليز لايجاد موطئ قدم لهم. ومع الايام جرى ازالة القشلة ليحل محلها مركز للشرطة والذي ازيل هو ايضا لتحل محله علاوي الخضروات واسواق الجملة والمفرد بهيئتها الحالية.

وقد اعتاد بعض بدو الزبير من النجديين وغير النجديين دخول المنطقة

لأغراض تجارية. وقبل نحو خمسة قرون (وبالتحديد في الربع الأخير من القرن

العاشر الهجري) بدأت هجرة أبناء نجد من بلادهم إلى مدينة البصرة الحديثة، والغرض الأساسي من ذلك هو كسب الأرزاق والعمل في بساتين نخيلها خاصة في موسم الرطب والتمور، وإذا ما انتهى الموسم عادوا إلى بلادهم نجد يحملون معهم القليل مما كسبوه ليستعينوا به على تحسين أحوال أسرهم المعيشية.. وهكذا من موسم إلى موسم آخر.

سنة بعد سنة استقر النجديون في الزبير ثم بدأت بعض العائلات الزبيرية بممارسة التجارة في منطقة السيف وكذلك منطقة العشار حيث سوق (الشيخ خزعل المسقف) في العشرينات وما بعدها برزت أسماء تجار زبيريين في العشار مثل الذكير والحمد والعثمان حيث عرفوا بنزاهة التعامل التجاري لغاية منتصف السبعينات من القرن الماضي وكان خاناتهم حافلة بشتى اصناف البضائع، حين اصدر مجلس الوزراء السعودي قرارا باستقبال من يرغب بالعودة الى نجد في ضوء التضييقات التي مارستها السطات في الستينات ضدهم وضد بعض ابناء الذوات في المجتمع البصري.وهكذا بدأت الهجرة المعاكسة ليعود النجديون زرافات ووحدانا الى اصولهم : عادوا الى نجد !

٣ ـ صبية تبيع السمك في سوق المغايز

يعود تاريخ الصورة لما بين عامي ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ وتمثل صبية من ريف شمال البصرة تعرض إحدى السمكات للبيع. ويبدو ان سمكتها المعروضة من النوع النهري. والمكان في امتداد شارع المطاعم بالقرب من ملتقى تفرعات سوق الهنود الأربعة.التقط الصورة المصور الايطالي ماريو دب بياسيه اثناء جولة له في عموم العراق والكويت.

٤ـ تاريخ البطاقات البريدية في البصرة

المعروف ان البطاقة البريدية عبارة عن مستطيل من الورق او الورق المقوىٰ او رقائق النحاس توضع او لا توضع داخل مظروف يلصق عليها طابع قبل ارسالها لأغراض يتصل معظمها بتهنئة او تعريف سياحي او ما اشبه. وقد ارتبطت البطاقة البريدية بتاريخ البريد عالميا. في بريطانيا عرفت منطقة فولام Fulham بلندن اقرب الأشكال للبطاقة البريدية الحالية علىٰ يد الكاتب تيودور هوك عام ١٨٤٠ الذي قام بتصميمها وتلوينها يدويا ملصقا عليها طابعا من فئة البنس الاسود وكانت العملة الأصغر التي تقارب الملم المصري او الفلس العراقي في أواخر عهوده. وثمة احتمال انه أرسلها من باب التفكه الىٰ نفسه علىٰ سبيل السخرية من الخدمات البريدية اذ يظهر الرسم لوحة كاريكاتيرية لرجال البريد وقتذاك. ومن غرائب الأمور ان تلك البطاقة المصممة بشكل بدائي بيعت عام ٢٠٠٢ في احد مزادات لندن بمبلغ خيالي يناهز ٣١٧٥٠ باونا انكليزيا !

عرفت البصرة عبر تاريخها الأقرب البطاقة البريدية عن طريق بعض المطابع التي أخذت علىٰ عاتقها طبع مئات الصور علىٰ البطاقات البريدية كان الغرض منها سياحيا بمعنىٰ التعريف بالمدينة او الشارع الذي يقطن فيه المرسل.

ومع الزمن أصبحت البطاقة البريدية جزء لا يتجزأ من عملية التوثيق التاريخي لمدينة او لبلد ما. وقد اشتهر عدد من استوديوهات المدينة في سنوات الخمسينات والستينات والسبعينات بالصور الملونة وغير الملونة والتي استفادت منها المطابع التي كانت تتولىٰ اصدار البطاقة البريدية كستوديو قاسم وهايك وفينوس، علىٰ سبيل المثال. غير ان تجربة الأخوين سالمين(عبد الرضا وعبد المحسن سالمين) كانت الأبرز في مضمار اصدار مئات البطاقات البريدية التي كانت تصور شتىٰ المناظر الطبيعية

الجميلة لمدينة البصرة وفي شتى مراحلها، حيث أسسا مكتبة الشرق في بداية سوق حنا الشيخ من جهة عمارة النقيب والتي كانت واجهتها تطل على جسر المغايز المعلم الأبرز للعشار مركز المدينة.

غير ان الدكتور صباح الناصري(دكتوراه في الادب مقيم في مقاطعة النورماندي بفرنسا)، اشار عبر المعلومات القيمة التي نشرها في مدونته الى بداية التعامل البريدي بالبوسكارد او البطاقة البريدية لمدينة البصرة. لنقرأ معا ما يقوله الدكتور الناصري:

بطاقات بريدية عن العراق نشرتها شركة ر. تك في لندن

شركة رفائيل تك في لندن:

شركة روفائيل تك واولاده

بدأ رفائيل تك Raphael Tuck يمارس التّجارة بمساعدة زوجته في لندن. وشرعا عام ١٨٦٦ ببيع صور لرسوم ولبطاقات تهاني. وتحسنت تجارتهما عندما أضافا إليها بيع البطاقات البريدية. وأصبحت شركتهما بعد سنوات قليلة من أهم الشركات البريطانية المختصة بطبع البطاقات وبيعها في نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين. وشارك ثلاثة من أبنائهما في تسيير الشركة فأصبح اسمها:R. Tuck & Sons ثمّ أدار الإبن الثّاني أدولف الشركة حتّى وفاته في ١٩٢٦.

وقد قصف مقر الشركة في بداية الحرب العالمية الثّانية

عام ١٩٤٠ ودُمرت المسوّدات الأصلية للصّور الّتي كانت فيه، ومن بينها صور العراق في بداية القرن العشرين. ولم يبق لنا إلّا البطاقات البريدية الّتي كانت قد طبعت عنها.

من هو كريم البصراوي الذي تعاقدت معه شركة تك؟

نعرف من النّص المكتوب على ظهر عدد من البطاقات البريدية أنّ الشركة اللندنية طبعتها لحساب كريم البصراوي وعلى النحو التالي:

إنّ اسم A. Kerim ربّما كان إختصاراً لعبد الكريم: Abdul Kerim. ويُحتمل إذن أن يكون المقصود به عبد الكريم إبراهيم يوسف تبوني المسيحي الكلداني من البصرة، سافر إلى الهند في نهاية القرن التّاسع عشر ودرس في بومباي. وقد اشترى هناك آلة تصوير عاد بها إلى البصرة وفتح استوديو تصوير فيها.

وقد وجدت ٤٢ بطاقة عليها في أسفل يسارها علامة الشركة، وفي أسفلها أيضاً تعليق باللغة الإنكليزية يصف المشهد والمكان الّذي التقطت فيه الصّورة.

ويمكن ان نصنف مجال اشتغال الشركة في ثلاث مجموعات:

المجموعة الاولى وتتضمن صورا تتعلق بالسّلطات الإدارية للجيش البريطاني في البصرة والمباني الإدارية التّابعة لها مثل صورة لمبنى الحكومة The Government House في البصرة. ونلاحظ العلم البريطاني يرفرف فوق المبنى، مما يدلّ على أنّه كان مقرّ الإدارة البريطانية لولاية البصرة بعد أن دخلتها القوات البريطانية في ١٩١٤.

ولا شكّ في أنّه استعمل حتّى عام ١٩٢١، عندما تكوّنت المملكة العراقية وضمّت ولاية البصرة إلى ولاية بغداد. كما ضمت صورا لورشات ورشات الجيش البريطاني الهندسية "Engineer Field Park" في البصرة ومخزن العتاد "Ordnance Depôt" في البصرة

ورشات البحرية للإصلاح والصّيانة، ومبنى الجمارك "Marine Repair shop and Customs" في البصرة. ولدينا صورة أخرى لمبنى الجمارك "Customs House" التقطت من جهة أخرى اضافة للمستشفى البريطاني British General Hospital في البصرة. وكذلك مكتب البريد والبرق، شارع السّاحل، البصرة The Strand. Post & Telegraphs.

المجموعة الثانية كانت تضم مناظر لمدينة البصرة وعموم الجنوب العراقي بينما اقتصرت المجموعة الثالثة على صور ملتقطة لبغداد ماقبل وبعد دخول الجنرال ستانلي مود ١٩١٧ والمناطق المحيطة بها.

وقد استخدم العديد من تلك الصور كبطاقات بريدية اعتاد جنود الامبراطورية البريطانية ارسالها الى ذويهم تذكرة بأنهم احياء وتعريفا بما وصلوا اليه من بقاع ارتبطت لديه بألف ليلة وليلة.

شركة حسو اخوان

ومثلما تعاونت مؤسسة رافاييل تك مع المصور البصري عبد الكريم تبوني الذي استمر في بيع بطاقاته لسنوات طويلة، تعاونت مع حسو اخوان Hasso Bros.

والتي قام بتأسيسها بشارع الرشيد ببغداد الشقيقان ناصيف واخوه بشير وبأشراف اداري من لدن ابن عمهما الياس. وقد تبنت هذه الشركة، منذ نشوئها

تنويع أنشطتها وهكذا نشرت بطاقات بريدية عن العراق لون بعضها باليد لتلبي طلبات الأوربيين والعراقيين على حد سواء. وكان سوق طباعة البطاقات البريدية وبيعها مزدهرا في بغداد وفي فرع الشركة بالبصرة ولهذا كان من الطبيعي ان تنشر مجموعة من الصور عن عراق ما قبل وما بعد ١٩٢٥ التقطت في شتى المدن العراقية اختير قسم منها ليكون بمثابة بطاقات بريدية امتازت بخفة ثقلها وسرعة وصولها.

٥ ـ حكايات أبي مشتاق مع سينمات البصرة

خمس ساعات من الاستذكار وتقليب الصفحات تقضّت من دون أن اشعر بها وأنا أحاور آخر عاشق من عشاق سينمات البصرة. مكتبته الصغيرة حافلة بمجلدات تضم مانشيتات مئات الأفلام التي عرضت في سينمات المدينة التي تحولت بحكم الزمن إلى، مقاه، وكراجات وعمارات بلا ذائقة. حدثني ابو مشتاق عن علاقته بعالم السينما قائلا: " كنت منذ صغري اعشق عالم السينمات إذا لم تكن وسائل الترفيه متوفرة كما هي عليه هذه الأيام. كان هنالك الراديو والتلفزيون لكنهما لم يشبعا أحلام فتى صغير. وشيئا فشيء وجدت نفسي في دور السينما وسيلة للعيش حيث استأجرت مقصف سينما الحمراء الجديدة الشتوي لزبائني من الفتية و الكبار ممن كانوا يقبلون على سندويتشات الفلافل والمخ والزلاطة ومكسرات الحب والفول السوداني. كما إنني وجدت في السينما ما يلبي ميولي من رسم، وكمال أجسام، وتصوير فوتوغرافي.

في بدايات عمري انجذبت إلى أفلام طرزان وعوالمه الفريدة من نوعها كما إنني كنت معجبا بأجسام ممثلي شخصية طرزان: جوني ويسموللر، بستر كراب، ليكس باركر وآخرين. كما إنني انجذبت إلى أفلام الغرب(الكاوبوي). لكن جوني

ويسموللر لم يكن اول من ادىٰ دور طرزان في السينما الهوليوودية ذلك أن اول من ادىٰ الدور كان الممثل المو لنكن في عام ١٩١٨ تحت عنوان (طرزان الرجل القرد).

وعن ذكرياته عن تومان عازف الناي قال: " كان تومان من الشخصيات البصرية التي لا يمكن نسيانها. وقد بدأ حياته الاستعراضية مقلدا للممثل العربي (شكوكو). ثم اختارته ادارات السينمات في البصرة ليكون مسؤولاً عن الترويج لأفلامها المعروضة، وما زلت اذكر موكبه المؤلف من صغيرين بالسن يحملان خشبة المانشيت ويقومان بالتجول في شوارع المدينة. وكان تومان يضيف لتلك العملية سحرا خاصا عن طريق العزف بالناي (الفيفرة) عن طريق الأنف وكان عزفه في غاية البراعة.

اما اكثر من جذبه الى عالم السينما شخصية طرزان الاسطورية: " في بدايات عمري انجذبت إلى أفلام طرزان وعوالمه الفريدة من نوعها كما إنني كنت معجبا بأجسام ممثلي شخصية طرزان: جوني ويسموللر، بستر كراب، ليكس باركر وآخرين. كما إنني انجذبت إلى أفلام الغرب(الكاوبوي). لكن جوني ويسموللر لم يكن اول من ادىٰ دور طرزان في السينما الهوليوودية ذلك أن اول من ادىٰ الدور كان الممثل المو لنكن في عام ١٩١٨ تحت عنوان (طرزان الرجل القرد)..

وتحدث عن فترة الانقطاع الطويلة عن عالم السينما قائلا: " نعم.. رغم تراجع دور السينما لصالح التلفزيون إلا إنني بقيت اعشق السينما مضيفا إلى ولعي بأفلامها هوايات اخرىٰ مثل الرسم وتجليد مئات الصور وتبويبها إلى داخل البومات إضافة الى التصوير الفوتوغرافي. لكن الحقيقة إن حربنا مع إيران وفترة الخمس عشرة سنة التي قضيتها في الأسر بترت علاقتي بالسينما كعالم أعيشه واعشقه. ولكن ما أثلج صدري هو أن زوجتي حرصت علىٰ صيانة مكتبتي بكل حرص وأمانة طيلة فترة الأسر القاسية. ثم ختم ذكرياته بالقول: " السينما لونت حياتي وأشبعت رغباتي وأحلامي، مثلما كانت مصدر رزق كنت اعتاش عليه. اجل كنت

شاهدا على تألق واندثار عوالم السينما الساحرة. كما ان السينما أعطتني تصورا أرحب للحياة بشتى وجوهها الارستقراطية والشعبية. "

٦ـ العالم النرويجي هايردال

رحلة سفينة البردي من القرنة الى البحر الأحمر

كان هدف هايردال من الرحلة إثبات إن العراقيين القدامى، خاضوا البحار ووصلوا الى أماكن بعيدة، ملقياً الضوء على حضارة وادي الرافدين وعلاقتها بحضارات أخرى. كان الهدف من هذه الرحلة اثبات ان الحضارات الشرق الأوسط كانت تتواصل فيما بينها حضارة وادي الرافدين و حضارة وادي النيل و حضارات وادي السند عبر البحار و المحيطات. محاولاً إثبات إن العراقيين القدامى، خاضوا البحار ووصلوا الى أماكن بعيدة.

ولد تور هايردال في السادس من تشرين الاول ١٩١٤ وتوفي في الثامن عشر من نيسان ٢٠٠٢. وهو مغامر وعالم مختص بالاجناس البشرية اضافة لاهتمامه بعلوم الحياة والحيوان والجغرافيا.

عام ١٩٤٧ برحلته الشهيرة والمسماة (كون تيكي) والتي قطع فيها ماينا هز الثمانية آلاف كيلومترا عبر المحيط الهادي على متن طوف يدوي الصنع منطلقا من جنوب اميركا اللاتينية وحتى جزر (تواموتو)، وكان هدف الرحلة البرهنة على انه كان بإمكان قدماء الشعوب القيام بأبعد الرحلات البحرية. كما قام هايردال برحلات اخرى مثل رحلته التي برهن خلالها على امكانية التواصل بين الشعوب المتباعدة من حيث المسافات.

في صيف عام ١٩٧٧م قرر هايردال بناء سفينة دجلة و انتهى من بناء السفينة في بداية الشتاء، و ابحر هايردال في كانون الأول عام ١٩٧٧ و رفع علم الأمم المتحدة

و بدأ رحلته من شمال البصرة مدينة القرنة عبر شط العرب مرورا بالخليج العربي الى خليج عمان ثم المحيط الهندي الى باكستان و من باكستان أكملت السفينة رحلتها وسط تلاطم الامواج العاتية عبر المحيط الهندي الى خليج عدن ووصل قبالة الساحل الجيبوتي عند مدخل البحر الأحمر منع هناك من المرور عبر البحر الأحمر بسبب الظروف السياسية المعقدة و كثافة التواجد العسكري و القطع البحرية. فكتب رسالة شهيرة الى الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة(كورت فالدهايم Kurt Josef Waldheim) يشرح فيها ملابسات الامور و يحتج على ما وصلت إليه الأمور بين أقطاب هذا العالم، بتاريخ ٣ نيسان ١٩٧٨ بعد فشل في إقناع الجهات الدولية بأن مهمته إنسانية بحتة قرر إحراق سفينة دجلة كنوع من الاحتجاج عما يحصل في العالم، لتنتهي بذلك رحلة سفينة دجلة التي استمرت قرابة أربعة أشهر قطعت خلالها مسافة تصل إلى ٦٨٠٠كم!

٧ ـ رافقت القوات البريطانية

المصورة الحربية بولا برونشتاين في بصرة ٢٠٠٤

صفحة ساخنة من صفحات الاحتلال البريطاني للبصرة. الاحتلال الاول في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٤، والثاني عام ١٩٤١ ايام حركة رشيد عالي الكيلاني والثالث ما اطلق عليه بعاصفة الصحراء ١٩٩١. والرابع بدأ انطلاقا من ام قصر بدء من ٢٠ ـ اذار ـ ٢٠٠٣. الصور لقوات الكوماندوز وقطعات اخرى من الجيش البريطاني بالقرب من احد الاحياء الشعبية (الحيانية في الاغلب) والتاريخ كان الثالث من نيسان عام ٢٠٠٤ حيث خرجت القوات البريطانية لردع وتطويق مظاهرة شعبية قوامها الشباب كانت تطالب بتوفير العمل، حيث بلغ التوتر ببعض

المتظاهرين الى تحطيم نوافذ مكتب البريد القريب من موقع الصور.التقطت الصور من قبل المراسلة الحربية الامريكية بولا برونشتاين. ولكن من هي بولا التي وفدت على بلادنا وخرجت من دون ان تثير اهتمام الجهات المسؤولة وربما من دون ان يكون لها ملف يمكن الافادة منه ومن خدماتها المهنية على الاقل؟

بعد تخرجها من قسم التصوير في كلية الفنون الجميلة بجامعة كولورادو بالولايات المتحدة والفنون الجميلة من احد معاهد جامعة سالزبرغ بالنمسا بدأت نشاطها الصحفي في جزيرة رودس اليونانية ١٩٨٢ ومن ثم عادت الى بلدها لتعمل ضمن الكادر التصويري في اكثر من صحيفة معروفة: شيكاغو تربيون وسواها من صحف.و منذ ١٩٩٨ وبولا مستقرة في بانكوك العاصمة التايلاندية وقد خاضت غمار التصوير وتحرير الاخبار العاجلة في اكثر من منطقة ملتهبة: افغانستان، باكستان، اندونيسيا، اليابان، هونك كونغ والعراق.نالت عددا من الجوائز العالمية حيث وصلت لنهائيات جائزة بوليتزر للاخبار العاجلة اضافة الى جوائز عالمية اخرى استحقت من خلالها ان تسمى (سيدة مناطق الصراع الساخنة). في احدى تغطياتها في هونغ كونغ قبض عليها وجرى احتجازها لاكثر من يوم لما ادعته سلطات هونغ كونغ من اساءتها للعمل الصحفي من خلال القيام بتسلق احدى سيارات المرسيدس والتلويح للمتظاهرين في يوم اسموه بيوم المظلة.

٨ـ هل هذا هو شارع الوطني حقا؟ !

بين الفينة والفينة ينشر بعض الاصدقاء صورة لشارع يظنون خطأ انه شارع الوطني. ولكي اثبت لأخوتي ان الصورة المنشورة ليست للشارع المذكور اطلاقا بل لشارع يمثل الضلع الشمالي لساحة البرج في بيروت. وهم في توهمهم معذورون

فالشبه صارخ وقد خدعني او كاد لحين من الوقت. ولكي ابدد كل شك لديهم سأقتطع وقفات هامة من الفصل الثاني من مشروع كتاب رحلات من تأليفي عنوانه (كنت هناك). اجل. في عام ١٩٧١ مررت ببيروت، في طريقي لاسطنبول، مرتين الاولى للذهاب والثانية لرحلة الاياب.الشارع الموجود في الصورة قادم من البحر أي من جهة الغرب مرورا بسوق شعبي شهير يدعى (سوق سرسق) نسبة الى اسم العائلة المؤسسة والذي تغيرت معالمه في يومنا هذا الى حد كبير.

في احد ايام تموز ٧١ غادرنا سيارة المرسيدس قادمين من دمشق التي قضينا بها يوما واحدا من اجل الراحة من عناء طريق بغداد الصحراوي الذي قطعنا خلاله ما يتجاوز الالف كيلومتر. يبدو ان السائق انزلنا في مكان بساحة البرج ملاصق لاحد مكاتب السفريات. كان لابد من ليلة اخرى للمبيت من اجل الراحة والاستعداد لطريق شاق طويل لم اسلكه من قبل انا المدرس الشاب الذي يدل مظهري على انني واحد من طلبة الكليات لا مدرس في اعدادية العشار المركزية. كنا ثلاثة: استاذ اللغة الانكليزية لورنس واخوه ومحسوبكم كاتب السطور لمعلمة العجوز بالجلوس !

ولنقرأ المزيد عن دور السينما في ساحة البرج او ساحة الشهداء التي سميت باسم الشهداء الاربعة عشر اللبنانيين الذين شنقهم الوالي التركي جمال باشا السفاح في ١٩١٦:

" إن وفرة صالات السينما في قلب العاصمة، قد أنعش محيطها التجاري مما دب فيه الحياة والذي جعل منها عاصمة لا تنام. ففي ساحة الشهداء وتحديداً شارع بشارة الخوري أعلاه كان يوجد صالة تدعى «غومون بالاس» وكانت تعرض الأفلام الأوروبية الشرقية ولاسيما منها الروسية وإنحداراً إلى منتصف شارع بشارة الخوري كانت سينما «شهرزاد» التي تحولت في الستينيات إلى مسرح يدعى المسرح الوطني حيث كان الفنان الكوميدي حسن علاء الدين المشهور «شوشو» يعرض مسرحياته على خشبتها.

أما بجانب المسرح الوطني فتوجد سينما «اوديون» - التي تظهر في الصورة - روادها من الشباب المراهق وخلف سينما أوديون كانت تقع سينما «روكسي» وبجانبها مقهى يرتاده أهل الفن من المجتمع اللبناني. "

ومن المؤكد ان الاخوة المتابعين يشاهدون اللافتة التي لا تقول (سينما الوطني الشتوي) بل سينما (اوديون Odeon) المجاورة لفندق سرسق الشعبي الشهير الذي غيرت التكنولوجيا جل معالمه في ايامنا هذه بل وحتى قبل ايامنا هذه بسنوات !

٩ـ مفاجأة غير متوقعة

السراي الحكومي مقابل محلة السيمر

لقد بني مبنى بلدية البصرة القديم ايام عهد الملك فيصل الأول، في الثلاثينات، على اغلب الظن بإشراف من مهندس ينتمي الى اسرة رؤوف التي تمتلك مطبعة قريبة من جامع (المعرفي) المطلة على نهر العشار.اما في الجهة الشمالية المقابلة فنجد مبنى المحكمة القديمة - الذي تحول حاليا الى مجمع سكني لبعض الأسرة المهاجرة من الريف - وهكذا شيد مبنى السراي الحكومي موزعا على ضفتي نهر العشار قبل دخوله لمحلة (السيف) حيث يتصل المبنيان بجسر رابط.ويبدو ان السلطات العثمانية شيدت هذا المجمع كي تكون على مقربة من محلة السيف التي كانت تحتشد بشناشيل وجهاء المدينة من تجار وأغوات اضافة الى حرصها على ان تكون قريبة من منطقة البصرة القديم التي كانت تضم عددا من القنصليات والمكاتب التجارية مثل (شركة الهند الشرقية) وسواها من المكاتب والكنائس والبيوتات ذات الطابع التجاري، كما ان موقع السراي كان قريبا من محلة (السيمر) المطلة على نهر العشار

من جهة الجنوب.وقد عرفت هذه المحلة بمخازنها التجارية الضخمة التي كانت تصلها البضائع المستوردة عن طريق النقل النهري بعد تفريغها من البوخر الراسية في (شط العرب) قيل ان ينالها الحريق المدمر في بدايات القرن العشرين ١٩١٠ تقريبا. غير ان الاحتلال البريطاني ١٩١٤ ادىٰ الىٰ ازدهار محلة العشار علىٰ الصعيد التجاري والاقتصادي مما افضىٰ بالتالي الىٰ سحب البساط من البصرة القديمة لصالح العشار التي اصبحت مركز المدينة ومركزا للتجارة البحرية والنهرية حيث تدفقت عليها السلع من شتىٰ انحاء العالم ما ادىٰ الىٰ ازدهار سوق الهنود منذ بدء الاحتلال.

ويلاحظ وجود (ميبب) او قوس في مبنىٰ السراي الجنوبي صمم لغرض توفير شكل من اشكال الانسيابية بالنسبة لطريق بصرة – عشار الذي اطلق عليه البيرطانيون تسمية (طريق الساحل) كما اسلف ذكره. وقد انصب اهتمام القوات البريطانية علىٰ طريق الساحل لكونه يمر بباب او بوابة الزبير وكان الطريق البري المؤدي لقاعدة الشعيبة حيث تتوقف وسيلة المواصلات النهرية عند منتهىٰ نهر العشار بالقرب من مستشفىٰ مود (الجمهوري).

ان الصور المتوفرة لدينا جاءتنا كالعادة عن طريق المصادر البريطانية او مكتبة الكونغرس الأميركي.نقرأ علىٰ الصور التي تمثل السراي الحكومي انها ترجع لمكتبة (ماري ايفانز Mary Evans Picture Library للصور). ومعلوم ان طريق الساحل القريب من منطقة السيمر قد بدئ بتعبيده بالاسفلت في عهد المتصرف نظيف بيك.

١٠ ـ من الأهوار الى لندن

عالم يكتشف صنفا نادرا من كليب الماء

في العام ١٩٥٦ وصل عالم الطبيعيات الاسكتلندي غافن ماكسويل الى العراق متوجها الى الاهوار بحثا عن فصيلة حيوان نادر يطلق عليه اهلها تسمية (كليب او جليب الماء Otter).وبهذا يكون ماكسويل قد جاب منطقة الاهوار حتى قبل ولفريد ثاسيجر ببضع سنين. وهناك في أحراش الاهوار تعرف على رجلين من المعدان كان اسم احدهما (عجرم) والثاني (حسن بن مناتي) حيث قام الاثنان بإهدائه مخلوقين غريبي الشكل من النوع الذي اعتاد اهل الاهوار تسميته بـ (چليب الماء او كليب الماء). اطلق ماكسويل على ذلك المخلوق اسم (مجبل) وعلى المخلوق الأخر اسم (كحلاء) وسرعان ما اقفل عائدا الى لندن، غير ان (كحلاء) توفيت بالحمى في الطريق لكنه اعتنى بمجبل محتفظا به في داره مع كليب ماء آخر من اصول اوروبية.

ولد العالم الاسكتلندي ماكسويل عام ١٩١٤ في اسكتلندا وتوفي في سبتمبر من عام ١٩٦٩ .وكان كاتبا متعدد الاهتمامات لكن كتابه الذي حمل عنوان (دائرة الماء الساطع Ring of Bright Water) الذي اصدره عام ١٩٦٠ نال شهرة واسعة حيث فاق مبيعاته اكثر من مليون نسخة.

اكتشف ماكسويل أنّ هذا النّوع الّذي يعيش في الأهوار كان مجهولاً في كتب علم الحيوان. وبعد أن نشر دراسة عنه أطلق على الحيوان اسم Maxwell's Otter.واعطاه اسما علميا لاتينيا.

نشر ماكسويل في عام ١٩٦٠ كتاباً عن "مجبل" والعلاقات الّتي توثّقت بينهما، بعنوان Ring of Bright Water ولاقى ذلك الكتاب نجاحاً كبيراً وأعيد طبعه مراراً، وبيع منه أكثر من مليون نسخة.

في ١٩٦٩ أخرج المخرج البريطاني Jack Couffer هذه القصّة في فيلم سينمائي لاقى نجاحاً هو الآخر، وعرف "مِجبل" في الفيلم باسم) Mij).

عموما يمكن القول انه سبق لماكسويل انه ألف صنفين من اصناف كليب الماء من اصول اوربية من بين صنفين آخرين كان سيكتشف وجودهما في الاهوار. ومعروف ان لكليب الماء جلدا من الفرو الناعم كان يغري اهل الهور باصطياده من اجل الحصول على ذلك الفراء الذي كان يستخدم لأغراض منع الماء من التسرب الى مقتنيات ساكني الهور المستخدمة من اجل مواصلة العيش. وكان لون الصنفين الاوربيين اسود واحمر بينما كان لون الصنف العراقي النادر المسمى مجبل بواحد من لونين.. الابيض والرمادي. وعموما تعرض (جليب الماء) الى موجات انقراض نظرا لطرائق صيده باستخدام البندقية (الشوزن Shotgun) وكذلك عن طريق الصعق الكهربائي كما ان مساعي تجفيف الهور من قبل النظام السابق قامت بكشف وتعرية الجحور الذي اعتاد ان يختبئ فيها ما ادى الى المزيد من حالات الانقراض بالنسبة لذلك الحيوان الرشيق الذي تعرض للانقراض بفعل عوامل الطبيعة والعوامل البشرية.

في عام ١٩٦٩ تم اخراج فيلم مقتبس عن كتاب العالم ماكسويل حمل عنوان (دائرة الماء الساطع) وكان من بطولة الممثلين البريطانيين بيل ترافرز وفرجينيا ماكينا. تدور احداث الفيلم حول مواطن لندني يقتني كليب ماء ويتآلف معه الى حد السماح له بالمبيت معه في البيت.

١١ ـ زيارة لقصر طالب النقيب في السبيليات

كان صباحا حزيرانيا حارا الى حد ما، تخفف من حرارته غلالة غبارية صنعتها ريح شديدة الاندفاع. كان الصديق اسماعيل حسين في انتظاري عند مدخل بلدة السبيليات، تنفيذا لموعد أخلفته شهورا لظروف شتى كان في مطلعها عدم توفر وسيلة نقل وكاميرا، وها انا انجح في توفير الوسيلتين. كان هدفنا العام تسليط الضوء على شخصية عراقية متمثلة بشخص طالب باشا النقيب، وهي شخصية أسهمت لسنوات في رسم سياسة البصرة وما جاورها من أقاليم ان لم تكن قد أسهمت في رسم سياسة ما قبل الملكية وما بعدها.

مختزل لسيرة حافلة

فالمعروف ان طالب باشا النقيب، بحكم طموحه الشخصي، قد كسب عددا كبيرا من الصداقات بالقدر الذي جوبه بعدد كبير من الأعداء والحاقدين لاسباب شتى بعضها ربما يكون صحيحا، وبعضها يخلو من الصحة كالأهزوجة الشعبية الشهيرة: " ثلث الله وثلثين الطالب وثلث الله يطالب بي طالب ! " وهي الأهزوجة التي دحضها الدكتور علي الوردي مشيرا الى انها تخص أحد شيوخ الإقطاع في الكوت وليس السيد طالب النقيب. وعلى الرغم من ان سيرة الباشا أضحت معروفة للقاصي والداني ولكننا ارتأينا ايراد بضعة سطور يمكن ان تنير الشاشة بأكملها، اذ تقول المصادر ان السيد طالب السيد رجب بن محمد بن سعيد السيد طالب درويش الرفاعي ولد عام ١٨٧١ في البصرة، درس القانون وتعلم اللغات الفارسية والتركية والانكليزية والهندية. وكان واحدا من أربعة نواب عن البصرة في مجلس المبعوثان العثماني جنبا الى جنب أحمد باشا الزهير، حمدي باشا وشوكت

باشا. أسس حزب الحرية والائتلاف والجمعية الإصلاحية، ودعا الى كيان عربي موحد يضم الكويت وعربستان والبصرة وذلك في اول مؤتمر قومي حضره الشيخ مبارك امير الكويت والشيخ خزعل عام ١٩١٣. قاد اول حملة ضد شركة بيت (لنج) البريطانية ودعا الى شركة عراقية للملاحة وبارك مشروع قطار برلين ـ بغداد. كما نادى بالثورة على الانكليز.عرف عنه قوته وبأسه وقدرته على مواجهة لمواقف الصعبة، ثم تولى وزارة الداخلية في اول حكومة عراقية مؤقتة (حكومة الكيلاني)، وعرف بشدته ومناوأته للحكمين العثماني والبريطاني مما اكسبه عددا كبيرا من الأعداء من الجانبين.ولكن الخط البياني المتصاعد لطالب النقيب بدأ بالهبوط تدريجياً، بعد تعين (برسي كوكس) حاكماً سياسياً للعراق، حيث أسندت الى الباشا وزارة الداخلية في الحكومة العراقية المؤقتة، بعد ان عين البريطانيون الامير فيصل بن الحسين ملكاً للعراق وفق مقررات مؤتمر القاهرة ١٩٢١ م، وقد عارض طالب النقيب ذلك وهدد السلطة بالتمرد معتمداً على رؤساء العشائر العراقية، مما حدى ببريطانيا الى انهاء دوره السياسي فأرسل منفياً خارج العراق الى المانيا بمدينة (ميونخ) وقيل مدينة (زيورخ) في سويسرا حتى وفاته عام ١٩٢٩ م ونقل جثمانه الى مدينة البصرة حيث دفن في مقبرة الحسن البصري في مدينة الزبير.

حكاية اغرب من الخيال

في واحد من أعدادها نشرت جريدة المنارة الحكاية التالية التي يؤسفني ان لايكون نصها طبق الأصل متوفرا حاليا، ولكنني من باب اضعف الأيمان آثرت ان اقدم خلاصة لتلك الحكاية الواقعية:

كان سائق السيارة الأجرة بانتظار من يستأجر سيارته حين اقترب منه شخصان رجل وامرأة تبدو عليهما ملامح غير بصرية ولا حتى عراقية. ولما سألهما ذلك السائق عن وجهتهما طلبا منه ان يوصلهما الى بيت السيد طالب باشا النقيب في

السبيليات. سارت بهما السيارة عبر طريق ابي الخصيب الملتوي الذي لم تفلح جاذبيته في رسم ولو ابتسامة واحدة على وجهي الراكبين، خاصة المرأة فيهما. وبعد نصف ساعة تقريبا عرجت بهما السيارة الى الطريق الريفي المؤدي لقصر الباشا. وحين اقتربت السيارة من القصر طلبت المرأة من السائق إيقافها على مسافة قريبة من القصر. وما ان شارفت السيارة المكان وتوقفت حتى خرج الاثنان وجعلا يحملقان بتجهم غريب في أركان القصر الخرب وبقيا على تلك الحال مدة من الوقت الى ان انتبهت المرأة من غفوتها لتطلب من السائق ان يعود بهما الى العشار ففعل. وحين روى السائق تلك الواقعة لأصحابه سألوه ان كان قد استفسر عن سر تلك الزيارة الغريبة. فقال بأن الفضول امسك بتلابيبه فلم يجد بدا من ان يسألهما، وما اذكره ان الرجل الذي رافق المرأة كان يتحدث باللغة العربية وقد اخبر السائق عن هوية تلك المرأة قائلا بأنها ابنة القائد التركي فريد بك الذي اتهم طالب النقيب باغتياله سنة ١٩١٣ كما قام باغتيال بديع نوري بك متصرف لواء المنتفك، وان ابنة فريد بك قدمت الى البصرة قادمة من تركيا لزيارة قصر طالب النقيب من اجل التشفي في ما وصل اليه القصر وصاحب القصر من تدهور واندثار وموت وخراب !

ويبدو ان تلك المرأة صبت نار حقدها على الباشا وكأنها كانت واثقة من ان الباشا كان وراء عملية الاغتيال جملة وتفصيلا. ومما اذكره من تلك المقالة ان فريد بك وصاحبه المتصرف كانا في نزهة بأحدى البواخر في عرض شط العرب، ولدى عودتهما ودخولهما الى نهر العشار، وقبل ان يغادرا ذلك المركب عند الشريعة المقابلة للطرف الشرقي لبيت الشيخ خزعل سابقا تم اغتيالهما باطلاق النار عليهما حيث هرب الجاني باتجاه سوق الهنود مباشرة بعد التنفيذ.

ومثلما هو الحب أعمى فإن الحقد أعمى أيضا. ونقرأ المعلومة التالية الواردة في كتاب الشيخ عبد القادر باش أعيان (موسوعة تاريخ البصرة) وضمن باب (المراقد

القديمة والحديثة في البصرة) وتحت رقم ٣٣: " ضريح رضوان بن علي: ضريحه واقع في محلة المناوي الان مقابل محطة تعبئة البنزين في الكزارة حاليا كانت عليه قبة وحوله مقبرة للمسلمين، وقبل ثلاثين سنة تهدمت القبة واندرس الضريح وكان مدفونا بالقرب منه الشهيدان اللذان اغتيلا عام ١٩١٣ وهما القائد التركي العسكري فريد بك وبديع نوري بك الحصري الحلبي متصرف المنتفك من قبل السيد طالب باشا النقيب عند قيامه بحركة اللامركزية بالبصرة.. " الى ان يقول:

" وقد اشتركت في مراسيم دفن الشهيدين المذكورين وكان الضريح ملاصقا لمحطة الكهرباء، وفي سنة ١٩٦٢ جعلته بلدية البصرة حديقة صغيرة بعد ان هدمت القبور وزرعت عليها الأشجار والورود " انتهى كلام الشيخ باش اعيان.

ويطرح السؤال الآتي نفسه: هل كلفت ابنة فريد بك نفسها تمحيص وتحليل المعلومة التي وصلتها عن مصرع ابيها على ايدي رجال طالب باشا أم جرفتها العاطفة الانثوية، عاطفة ابنة ثكلت بمصرع ابيها؟ ربما كانت ستغير رأيها لو كانت تمتلك ثاقب بصيرة تتيح لها ترجيح هذا الاحتمال او ذاك، ولو انها فعلت ذلك، لزارت قبر ابيها المدفون في تلك المقبرة.، بدلا من زيارة من اتهم بقتله !

لا ادري مدى اتساع تلك الحديقة الصغيرة التي حلت محل القبور والتي تحدث عنها كتاب الشيخ عبد القادر باش اعيان، فأنا اذكر شخصيا ذلك المرقد وموقعه تماما، بحكم سكني بالتعاقب في محلتي الكزارة والمناوي في اول عهدي بالصبا ومروري شبه اليومي بمقام رضوان بن علي قبل ازالته. فهل كنت في رحلتي من بيت اهلي الى بيت اعمامي أطأ قبورا مندرسة؟ هل كنت مثلا أطأ دونما وعي قبري فريد بك وبديع نوري بك؟ !

يحضرني في هذا المقام بيت ابي العلاء المعري:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

١٢ ـ حديقة الأمة أو مذبحة العشب

انشئت حديقة الأمة في الثلاثينيات من القرن الماضي حيث اطلقت عليها تسمية (حديقة الملكة عالية) ثم تغيرت التسمية الى حديقة الأمة بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وبحكم سكناي في محلة (المناوي باشا) المجاورة للحديقة من جهة الغرب، فقد كنت اتسلل اليها من البستان المجاور الخلفي (بستان الحاج عامر الكامل) او اجيئها من جهة شارع النوادي المطل على نهر الخورة. قضيت في هذه الحديقة ما لا يقل عن ست عشرة سنة بين تنزه ومذاكرة وتجوال. وقد حزنت اشد الحزن يوم زرتها بعد انتهاء حرب الثماني سنوات حين وجدتها مرآبا للدبابات وقد حل الاسفلت محل العشب. عنها كتبت بضعة سطور آثرت ان اختار النبذة الأتية:

" ارتجف، فيما احث خطى متثاقلة، مثل سيزيف، بأغلال خفية. اشارف المكان. امسح الرصيف المقابل بعينين اثقل جفنيهما سهر البارحة.. اين الحديقة؟ انكر ما تبصره عيناي.. هم لم يكذبوا اذن وهم يعلنون عن وفاة المكان.. اين اليوكالبتوس.. الصفصاف.. الاترج والنارنج.. الخرنوب البري.. عنب الثعلب.. اسيجة الآس.. ممرات الامس؟ لقد كف المكان عن ان يكون كما كان عليه.. متنزها تتلاعب الريح في جنباته، فبدلا من حدائقه الدائرية الخمس استحال الى مرآب وأي مرأب هو؟! ثمة دبابة تربض على ارض اسفلتية وهي تسدد مدفعا باتجاه الشرق !.. مستحيل.. انت في المكان الخطأ.. او انك في حلم.. من حديقة غناء الى مرآب.. من رئة الى مثانة ! نكتة سمجة كالحرب تماما.. اليس كذلك؟..افرك عينيك جيدا.. ما ارهف الخيط بين أي اثنين.. العقل والجنون.. الحقيقة والوهم.. لا.. لا.. انت تحلم.. ثمة من يفعل ذلك.. الخيل تحلم وهي واقفة.. افتح عينيك جيدا.. الصمت الذي يزنر المكان لا يعطيك ايما اجابة ولا حتى القصر الصامت المجاور..لكن الحقيقة تسطع قبالة عينيك.. جلية داعرة.. باردة برود الحديد في ليل الشتاء.. لا عشب.. لانزهات..

نصيبك ان تبصربرار اسفلتية تجثم فوقها دبابة.. اجل دبابة من نوع سنتوريون او شفتن او تي ٧٢.. ومن اين لك ان تميز بين ديناصور مجنزر وآخر؟!يوميا، دون هدى، تقودني ذاكرة مثقوبة وقدمان ارهقهما الترحال الى شاطيء النهر ومن ثم الى الحديقة التي لم تعد حديقة. حروب بلا انتهاء.. شارع النزهات الساعة بلا متنزهين.. يبدو ان المدينة تأبى التخلي عن عن ردائها الكاكي الماحق لألوان الارض.. حتى الهواء اصبح لونه خاكيا.. ! "

ومؤخرا تحولت حديقة الأمة الى هيكل لمبنى فندق لم يتم تنفيذه، في شارع فقد مذاقه الحقيقي، وبذلك يكون اهل المدينة قد خسروا واحدة من اجمل رئاتهم جنبا الى خسائر بيئية اخرى كجزيرة السندباد وأثل الزبير وضفاف نهر المدينة الكبير !

صورة ١ فلكة السعدي او مطافئ البصرة

صورة ٢ القشلة العثمانية بالعشار

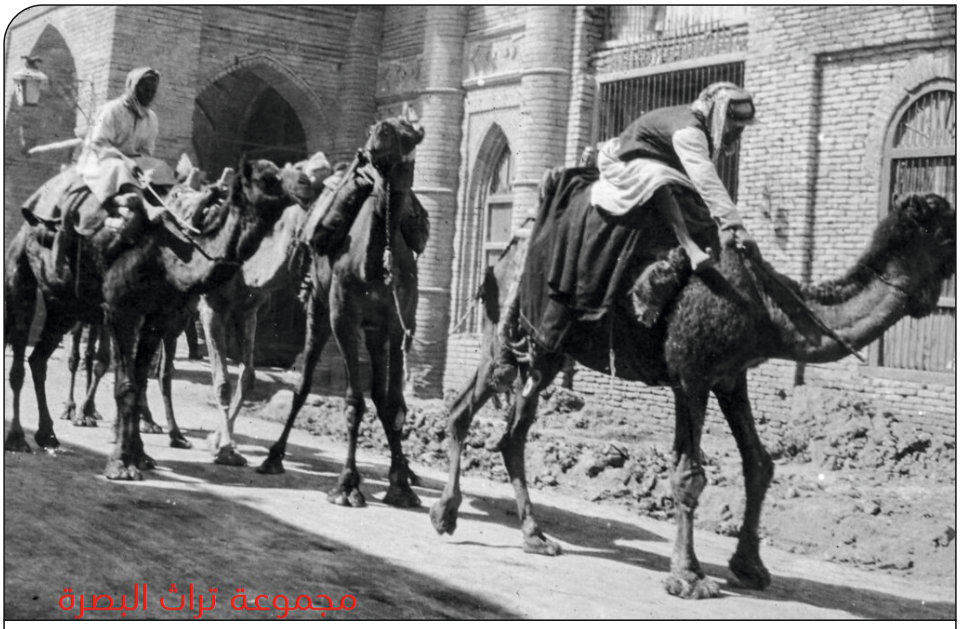

صورة ٣ بدو امام القشلة العثمانية في العشار

صورة ٤ بطاقة بريدية قرب جسر الوايتلي (المغايز)

صورة ٥ كريم ابو مشتاق عاشق السينمات

صورة ٦ رسم تخطيطي لكريم ابو مشتاق لتومان مروج الأفلام

صورة ٧ سفينة هايردال التي انطلقت من القرنة

صورة ٨ صورة بعدسة مصورة اميركية للقوات البريطانية في الحيانية

صورة ٩ السراي الحكومي في موقع المحكمة القديمة

صورة ١٠ سينما اوديون في بيروت لا سينما الوطني في البصرة

صورة ١١ العالم ماكسويل مع كليب الماء رييب الاهوار

صورة ١٢ لقطة جانبية لأطلال بيت طالب النقيب

صورة ١٣ سيارة طالب النقيب قرب منزله .

صورة ١٤ حديقة الأمة على شارع الكورنيش

صورة ١٥ بائعة سمك في قلب سوق المغايز

المؤلف في سطور

* محمد سهيل احمد

- من مواليد البصرة ١٩٤٧
- بدأ النشر في الصحافة البصرية والبغدادية اواسط الستينات
- خريج قسم اللغة الانكليزية ـ كلية التربية ـ جامعة البصرة ١٩٦٩
- له ثلاث مجموعات قصصية: العين والشباك ـ الكويت ـ مطابع الرسالة ١٩٨٥، الآن أو بعد سنين ـ بغداد ـ دار الشؤون الثقافية ٢٠٠٥، اتبع النهر ـ البصرة ـ اتحاد ادباء البصرة ـ ط١ ـ ٢٠١٠، بغداد ـ دار الشؤون الثقافية ـ ط٢ ـ ٢٠١٣
- جوائز ادبية: جائزة ملحق جريدة الجمهورية ١٩٦٦عن قصة (شوك لا يخرق)، جائزة مجلة مرآة الأمة ـ الكويت ١٩٨٤ عن نص (الانطفاء)، جائزة ملحق جريدة الرأي العام ـ الكويت ١٩٨٥ عن نص (خيول البحر)
- يمارس الترجمة منذ اواسط الستينات. ترجم عددا كبيرا من النصوص الشعرية والسردية في الصحف والمجلات الادبية المحلية والعربية والعالمية. ترجم رواية (ارداربيولا) للشاعر الروسي يفغيني يفتوشينكو ـ دار تموز ـ دمشق ٢٠١٣.
- مهنيا مارس تدريس اللغة الانكليزية في العراق ـ الكويت ـ الاردن ـ ليبيا بين ١٩٧٠ و٢٠٠٩
- عمل في الصحافة الادبية في الكويت والاردن والعراق.
- يعمل حاليا كمحرر في احدى الصحف المحلية في البصرة.